سيغموند فرويد

ثلاثة مباحث في نظرية الجنس

ترجمة:
جورج طرابيشي

هذا الكتاب

حين صدر هذا الكتاب قبل ثلاثة أرباع القرن كان له وقع الفضيحة .

ففرويد يطرق فيه ميداناً تحوطه المحرمات في العادة ، هو ميدان الحياة الجنسية .

وهو يطرقه بجرأة وبلغة صريحة لا تعرف التحرج .

ثم انه يتناول الجانب الذي يحوطه أعظم التحرج من الحياة الجنسية ، وهو جانب الانحرافات الجنسية ، فيُعيد تعريفها وتصنيفها ويربطها بمسبباتها .

وأخطر مباحث هذا الكتاب وأكثرها تجديداً هو البحث المتعلق بالحياة الجنسية عند الأطفال ، وهو المبحث الذي أحدث انقلاباً ، بكل ما في الكلمة من معنى ، في تصور الانسان .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ١٠ ل. ل.
او ما يعادلها

بيروت — لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون (٣١٤٦٥٩
        (٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
اذار (مارس) ١٩٨١

الطبعة الثانية
آب (اغسطس) ١٩٨٣

سيغموند فرويد

ثلاثة مباحث في نظرية الجنس

ترجمة :

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب

TROIS ESSAIS SUR
LA THÉORIE DE LA SEXUALITÉ

PAR
SIGMUND FREUD

Gallimard - Paris 1962

تقديم

صدرت الطبعة الأولى من **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** سنة ١٩٠٥ وقد أعيد طبعها في حياة فرويد مراراً عدة. وفي خمس طبعات منها، وهي طبعات ١٩١٠ و١٩١٥ و١٩٢٠ و١٩٢٢ و١٩٢٤، تناول فرويد النص الأصلي بالتنقيح والتعديل، واضاف اليه إضافات شتى تعكس كشوفه الجديدة والتطورات الطارئة على مبحث التحليل النفسي.

والنص الذي نقدم ترجمته هنا هو النص النهائي. وقد وضعنا المقاطع المنقحة الرئيسية بين قوسين [ ] وأتبعناها بعبارة (أضيف سنة ...) او (عدل سنة ....). وهو أمر لا يخلو من فائدة. فلولا هذه الإشارات، فلربما عزا القارىء الى فرويد الخمسيني[1] تصورات ما صاغها إلا في الستين اوحتى السبعين من عمره؛ ومن قبيل ذلك مفاهيم النرجسية، والتنظيم القبتناسلي، والنظرية الجنسية الطفلية، الخ. ثم إن هذه الاشارات تتيح للقارىء المدقق ان يتتبع، على نحو ملموس، التطور التاريخي للنظرية التحليلية النفسية.

بقي ان نقول ان **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** كان لها، في يوم صدورها الأول، وقع الفضيحة، وقد شوهت في نظر الجمهور العريض الصورة العلمية لفرويد الذي ما تورع بعضهم يومئذ عن اتهامه بأنه « مفكر بذيء وخطر». وعلى الرغم من مرور ثلاثة أرباع قرن على « الفضيحة »، وعلى الرغم من توطد مكانة التحليل النفسي كواحد من أقدر فروع العلم الحديث على

---

(١) ولد فرويد سنة ١٨٥٦.

النفاذ الى اعماق النفس الانسانية ، فإننا على ثقة ان بعض الاوساط الرقابية العربية ستستقبل ترجمة هذا الكتاب بازورار ... وبالمنع .

١٩٨١/١/١

ج . ط

تصدير الطبعة الثالثة

بعد أن تسنى لي أن أراقب على مدى عشر سنوات موقف الجمهور من هذا الكتاب ، بودي أن اضيف الى هذه الطبعة الثالثة بعض ملاحظات من شأنها تبديد بعض ضروب من سوء الفهم وتفادي خيبات أمل محتملة . وسوف نلح ، في المقام الاول ، على كون تحليلنا يرتكز الى خبرات طبية يومية ، يتعين على المنهج التحليلي النفسي ان يعمقها وأن يستخلص منها قيمتها العلمية . **والمباحث الثلاثة في نظرية الجنس** لا يمكن ان تحتوي بين دفتيها إلا ما يقرّ به التحليل النفسي أو يمكن له تأييده . ومن ثم يبدو مستبعداً أن تتمخض هذه المباحث عن نظرية في الجنس ؛ ومفهوم بالتالي ألا نكون اتخذنا موقفاً من بعض المشكلات الاساسية في الحياة الجنسية على الرغم مما قد يكون لهذه المشكلات من اهمية . غير أنني لا أريد أن يدخل في وهم أحد ان المؤلف تجاهل عن عمد هذه المشكلات أو أنه نحاها جانباً غير مقرٍّ لها إلا بقدر ضئيل من الاهمية .

أما مدى ارتكاز هذا الكتاب الى التفسير التحليلي النفسي ـ الذي هو حافزنا الى تأليفه ـ فيتضح لا من اختيار المشكلات فحسب ، بل كذلك من تسلسل دراستنا . فالنهج الذي نسير عليه يتميز بأننا نقدِّم ، في كل هذه المادة الموصوفة، العوامل المشروطة بالخارج ونؤخر بالمقابل العوامل ذات الصلة بالجبلَّة ؛ فنشوء الفرد أولى باهتمامنا هنا من نشوء النوع . وبالفعل ، ان التظاهرات المشروطة بالخارج هي الموضوع الرئيسي للتحليل الذي يملك أن يؤولها بتمامها تقريباً . اما التظاهرات الجبلية فتبقى في خلفية الوقائع بنوع ما ، وتجربة الحياة هي التي توقظها . ولو شئنا ان نقدر دورها حق قدره لنأت بنا الشقة عن مضمار التحليل النفسي .

ثمة صلة مماثلة بين النشوء الفردي والنشوء النوعي . فنشوء الفرد يمكن ان يُعد تكراراً لنشوء النوع ما دام هذا الاخير لم يتغير بتأثير خبرة مستجدة . والتطور النشوئي الفردي يشف عن الاستعداد النشوئي النوعي . غير ان الجبلَّة ما هي ، في حقيقتها ، إلا رسابة من خبرة ماضية للنوع ، مضاف اليها خبرة جديدة للفرد .

لئن كانت محصلة دراستي هذه وثيقة الارتباط بمعطيات التحليل النفسي ، فليس لي ، من جهة اخرى ، إلا أن أجهر باستقلال هذا الكتاب عن كل مبحث بيولوجي . فقد حرصت على تحاشي ولوج الدروب التي تفتحها لنا البيولوجيا الجنسية العامة أو البيولوجيا الجنسية المختصة بأنواع محددة ، وحصرت دراستي بوظائف الانسان الجنسية بالاعتماد على تقنية التحليل النفسي . ولقد كان مبتغاي معرفة مدى ما يستطيع علم النفس تزويدنا به من معلومات عن بيولوجيا الحياة الجنسية للانسان . وبذلك تسنى لي أن ازيح النقاب عن بعض العلاقات والوقائع التي يكون بينها التقاء واتفاق في هذين المضمارين ، دون ان أراني مضطرا ، مع ذلك ، الى التخلي عن بعض الاطروحات حينما يقودني التحليل النفسي الى الاخذ - في عدد من النقاط الاساسية - بآراء ونتائج لا تتمشى مع تلك التي تقول بها البيولوجيا .

فيينا ، تشرين الاول ١٩١٤

تصدير الطبعة الرابعة

لم تنتقص وقائع الحرب من الاهتمام الذي يبديه الجمهور ازاء التحليل النفسي . غير أن هذا الاهتمام لا يطال أجزاءه كلها على السواء . فلئن تكن الاجزاء السيكولوجية الخالصة من التحليل النفسي ، وذات الصلة باللاشعور والكبت والصراع المسبِّب لاضطرابات مرضية ومكسب المرض وآلية تكوُّن الأعراض ، تحظى بالقبول وتؤخذ بعين الاعتبار على نطاق اوسع فأوسع ، حتى من قبل خصومنا ، فإن ذلك الجزء من النظرية الذي يتصل بالبيولوجية ، والذي عرضنا افكاره الاساسية في هذا الكتاب ، يواجه على العكس بمعارضة خصوم كثر . وحتى من بين من أقبل من المفكرين على التحليل النفسي ، لحين من الزمن ، إقبالاً شديداً يعرض بعضهم عنه اليوم ويقترح فروضاً جديدة يراد بها الحد من دور العنصر الجنسي في الحياة النفسية السوية والمرضية .

على أنه لا يسعني ، رغم ذلك ، التسليم بأن هذا الجزء من المذهب التحليلي النفسي يبتعد اكثر من غيره من الاجزاء عن الواقع . فذكرياتي والفحص المكرر باستمرار للمسألة تقطع بأن النظرية مبنية على مشاهدات أجريت بدقة وبلا تحيز ؛ وليس من العسير علي ، فضلا عن ذلك ، تفسير موقف الجمهور . ولنقل بادىء ذي بدء إن المراقبين الذين يتوفر لهم قسط كاف من الصبر وطريقة مضمونة بما فيه الكفاية للمضي قدماً في التحليل وصولاً الى طفولة المريض هم وحدهم المؤهلون لتأييد صحة الفرضيات التي نتقدمْ بها هنا عن بداية الحياة الجنسية لدى الانسان . والحال أنه كثيراً ما يتعذر نهج هذا النهج بالنظر الى أن العلاج الطبي مطالب بالوصول الى شفاء سريع في ظاهر الأمر على الاقل . والحق أنه خلا الاطباء الذين يمارسون التحليل النفسي لا يمكن لأحد النفاذ الى

هذا المضمار ، ولا يتأتى له بالتالي تكوين حكم منزه عما ينفر منه وعما يحبذه . ولو صح بوجه عام ان الملاحظة المباشرة للاطفال كافية بحد ذاتها ، لكنا وفرنا على أنفسنا تجشم مشقة كتابة هذا الكتاب .

وينبغي ان نتذكر بعد ذلك أن بعض مقاطع هذا الكتاب ـ تلك التي تلح على أهمية الحياة الجنسية في النشاط الانساني كله وتلك التي نحاول فيها التوسع بمفهوم الجنسية ـ قدمت الذرائع لمعارضة التحليل النفسي ومقاومته . فبعضهم ممن تستويهم الكلمات الطنانة ، مضى الى حد الكلام عن نزعة جنسية شاملة PANSEXUALISME للتحليل النفسي ، ولم يحجم عن اتهامه ، ولو عن شطط، بأنه يفسر «كل شيء» بالجنسية. وقد يكون المرء في حل من ان يعجب لهذه الأمور لو جازله أن يغفل عن دور الأهواء التي تبلبل العقول وتنسي الناس أشياء كثيرة . فمنذ زمن غير قليل أبان شوبنهاور للناس مدى تعيّن نشاطهم كله بالنوازع الجنسية . وان اخذنا هذه الكلمة بمعناها المألوف ، فكيف حدث ان نسي فريق باكمله من الناس نظرية ملفتة للنظر كهذه ؟ أما فيما يتعلق أخيراً بتوسيعنا لمفهوم الجنسية ـ وهو التوسيع الذي فرضه علينا التحليل النفسي للاطفال ولمن يسمون بالمنحرفين ـ فجوابنا على اولئك الذين يلقون ، من عليائهم ، نظرة ازدراء على التحليل النفسي ، أن عليهم ان يتذكروا مدى قرب الصلة بين المفهوم الموسع عن الجنسية وبين الإيروس لدى افلاطون الالهي(١) .

فيينا ، أيار ١٩٢٠

---

(١) انظر س . نخمنسون : **نظرية الليبيدو لدى فرويد بالمقارنة مع نظرية الايروس لدى افلاطون** ، **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، المجلد ٣ سنة ١٩١٥ .

المبحث الأول

الانحرافات الجنسية(١)

تلجأ البيولوجيا ، لتفسير الحاجات الجنسية لدى الانسان والحيوان ، الى فرضية وجود «غريزة جنسية»، على مثل ما يُفترض وجود غريزة تغذية لتفسير الجوع . غير ان اللغة الشعبية لا تحتوي ، في مضمار الحاجة الجنسية ، على لفظة مقابلة لكلمة الجوع ؛ وعلى هذا فإن اللغة العلمية تستخدم لفظة **الليبيدو**(٢) .

يصطنع التصور الشعبي بعض افكار راسخة لنفسه عن طبيعة الغريزة الجنسية وسماتها . فقد درج العرف على القول إن هذه الغريزة مفتقدة في

---

(١) ان المعطيات المتضمنة في القسم الأول من هذا المبحث ترتكز الى الكتابات المعروفة لكل من كرافت ـ ايبنغ KRAFFT - EBING ، ومول MOLL ، وموبيوس MOEBIUS ، وهافلوك ايليس HAVELOCK ELLIS ، وف . شرنك ـ نونتزينغ V. SCHRENEK-NOTZING ، ولوفنفيلد LŒWENFELD ، واولنبرغ EULEN-BURG وإ . بلوخ I. BLOCH ، وم . هيرشفيلد M. HIRSCHFELD ، وكذلك الى مقالات منشورة في **حولية الدرجة الوسطى الجنسية** JAHRBUCH FUR SEXUELLE ZWISCHENSTUFEN التي يتولى إصدارها هذا الاخير . وبما ان ثبت المراجع الكامل لموضوعنا موجود في الكتابات المشار اليها ، فقد راينا ان لا جدوى من إيراده بمزيد من التفصيل .

[اما النتائج المتحصلة عن الملاحظة التحليلية للشاذين فتستند الى المعطيات التي زودني بها السيد سادجر SADGER والى خبرتي الشخصية] (اضيف سنة ١٩١٠) .

(٢) [ان اللفظة الملائمة الوحيدة : **اللذة** (بالالمانية LUST) ملتبسة المعنى لسوء الحظ ، إذ تدل على الاحساس بالحاجة وعلى إشباعها معاً] (اضيف سنة ١٩١٠) .

الطفولة ، وإنها تتكون في زمن البلوغ بالارتباط الوثيق مع السيرورات التي تفضي الى النضوج ، وإنها تتظاهر في صورة جذب لا يقاوم يمارسه أحد الجنسين على الآخر ، وإن هدفها هو الوصال الجنسي ، أو على أية حال جملة من الافعال التي ترمي الى هذا الهدف .

ان لدينا أسباباً وجيهة للاعتقاد بأن هذا الوصف لا يطابق الواقع إلا على نحو منقوص للغاية . ولو تفحصناه عن كثب لوجدناه يعج بجملة من الاخطاء والتحريفات والاحكام المتعجلة .

ولنبدأ بتثبيت مصطلحين . فالشخص الذي يمارس جذباً جنسياً سنسميه **الموضوع الجنسي** ، والفعل الذي تحض عليه الغريزة سنسميه **الهدف الجنسي** . وتثبت لنا الخبرة العلمية وجود حيدانات كثيرة ، تارة عن الموضوع وطوراً عن الهدف الجنسي ، وعلينا أن نسعى الى التعمق في العلاقات التي تقوم بين هذه الحيدانات وبين ما نقدر انه الحالة السوية .

١ ـ الحيدانات عن الموضوع الجنسي

لعل خير ترجمة للتصور الشعبي عن الغريزة الجنسية نلقاها في الاسطورة الشعرية القائلة ان الكائن الانساني انقسم الى نصفين ـ الرجل والمرأة ـ ما زالا يطلبان منذ ذلك اليوم الاتحاد ثانية بالحب . ومن ثم يثور لدى الناس عجب شديد متى ما علموا بوجود رجال ليست المرأة هي الموضوع الجنسي بالنسبة اليهم وانما الرجل ، وكذلك بوجود نساء تمثل المرأة بالنسبة اليهن الموضوع الجنسي . ويُطلق على هذه الفئة من الاشخاص اسم الجنسيين المثليين ، أو الشاذين ، وعلى الظاهرة اسم **الشذوذ** . وعدد الشاذين غفير بلا مراء ، وان كان يصعب في كثير من الاحيان تعرفهم[٣] .

أ ـ الشذوذ

سلوك الشاذين ـ نميز لدى الشاذين الانماط التالية :

(٣) بصدد الصعوبات المشار اليها اعلاه والمحاولات المختلفة التي جرت لبيان نسبة الشاذين الى الاسوياء ، انظر مقال السيد هرشفيلد في **حولية الدرجة الوسطى الجنسية** (١٩٠٤) .

أ ـ الشاذون **المطلقون** ، أي اولئك الذين ليس للجنسية عندهم سوى موضوع واحد يتمثل بالأفراد الذين ينتمون الى جنسهم نفسه ، بينما لا يمس فيهم افراد الجنس الآخر وتراً ، هذا إن لم يثيروا لديهم اشمئزازاً جنسياً . فإن كانوا رجالاً عجزوا ، بحكم هذا الاشمئزاز ، عن القيام بالفعل الجنسي السوي ، أو ما وجدوا فيه على اية حال لذة .

ب ـ الشاذون **المزدوجون** (الخنوثة الجنسية النفسية) ، أي اولئك الذين يمكن ان يتخذوا أياً من الجنسين على السواء موضوعاً جنسياً لهم . وعليه ، ان هذا النمط من الشذوذ لا يتسم بطابع الحصرية .

جـ ـ الشاذون **العارضون** ـ في هذه الحال يتحدد الشذوذ بالظروف الخارجية ، وبخاصة عدم توفر موضوع جنسي سوي ، أو تأثير الوسط .

يختلف الشاذون في الحكم الذي يصدرونه بأنفسهم على خصوصيتهم الجنسية . فالشذوذ في عرف بعضهم شيء طبيعي مثلما يرى الكائن السوي في اتجاه الليبيدو عنده شيئاً طبيعياً . وهم يطالبون للشذوذ بالحق بالمعاملة بمثل ما تعامل به الجنسية السوية . ويسخط آخرون بالمقابل على شذوذهم ويستشعرونه على أنه قهر مرضي[٤] .

ومن الممكن تمييز أنماط اخرى من الشذوذ ، تبعاً لطور العمر الذي تتبدى فيه هذه التظاهرات الجنسية . فالشذوذ يبدو لدى بعضهم سمة موجودة منذ أبعد زمن تعيه الذاكرة . اما لدى بعضهم الآخر فيظهر الشذوذ في زمن معين ، قبل البلوغ أو بعده[٥] . وقد تبقى هذه السمة الجنسية مدى الحياة ، او قد تختفي لحين من الزمن ، وقد تكون مجرد فاصل نحو تطور سوي . واخيراً ، قد

(٤) هذه المقاومة للشذوذ يمكن ان توفر شروطاً موائمة للعلاج بالايحاء او بالتحليل النفسي .

(٥) ذكر كتاب عديدون ، بحق ، انه من غير الجائز الوثوق بما يورده الشاذون من معطيات من سيرة حياتهم تتصل بالزمن الذي يظهر فيه الشذوذ ، إذ ليس من المستبعد ان يكون الشاذون قد طردوا من ذاكرتهم وقائع كان من شأنها ان تشهد على ميولهم الجنسية الغيرية .

[لقد أثبت التحليل النفسي أن هذا الظن في محله ، على الاقل في الحالات التي تسنى له ان يتعاطى وإياها ، ولقد احدث تغييراً حاسماً في التاريخ التذكري لهذه الحالات بسده الفجوات الناجمة عن النسابة الطفلية] (عدل سنة ١٩١٠) .

لا تفصح عن نفسها إلا في زمن متأخر ، بعد فترة طويلة من نشاط جنسي سوي . بل لوحظت حالات تتسم بتذبذب دوري بين موضوع جنسي سوي وموضوع شاذ . وثمة حالات مثيرة جداً للاهتمام ، وهي تلك التي يتحول فيها الليبيدو الى الشذوذ عقب تجربة مؤلمة مع موضوع جنسي سوي .

ان هذه السلاسل المختلفة من التنوعات مستقلة إجمالاً عن بعضها بعضاً . وفي الحالات القصوى ، أي حالات الشذوذ التام ، يمكننا الافتراض ان الخصوصية الجنسية تظهر في وقت مبكر من الحياة وأن الفرد يعيش راضياً بها .

لا ريب ان الكثير من المؤلفين يأبون ان يجمعوا جميع الحالات المشار اليها هنا تحت عنوان واحد ، فيلحون على ما بينها من أوجه اختلاف لا على ما بينها من أوجه شبه ، وهذا أوفق لما كوّنوه من آراء بصدد الشذوذ . لكن مهما تكن التقسيمات مبررة ، فليس لنا ان نتجاهل ان جميع الدرجات الوسطى يمكن ان تتلاقى ، بحيث تفرض فكرة السلسلة المتصلة الحلقات نفسها .

نظرية الشذوذ ـ لقد عُد الشذوذ في اول الامر علامة على انحطاط عصبي خِلقي . وآية ذلك ان اول الاشخاص الذين لاحظ الاطباء لديهم الشذوذ كانوا مرضى عصبيين ، أو يبدون على الاقل كذلك . وتقوم هذه الدعوى على قضيتين ينبغي ان ننظر في كل منهما على حدة : أن الشذوذ خِلقي ، وان الشذوذ علامة انحطاط .

الانحطاط ـ ان الاستخدام اللامتبصر لكلمة الانحطاط يثير هنا ، كما في كل مكان ، جملة اعتراضات . فقد درجت العادة على إطلاق اسم الانحطاط على كل تظاهرة مرضية غير ناشئة في أسبابها عن رضة أو عدوى . وبموجب تصنيف ماغنان Magnan للمنحطين ، صار بالامكان أن تشمل في باب الانحطاط حالات يؤدي فيها الجهاز العصبي وظائفه على أمثل وجه . فما قيمة فكرة الانحطاط ، والحالة هذه ، وماذا يمكن ان يكون مضمونها الجديد ؟ ويلوح أنه من الاصوب عدم الكلام عن الانحطاط في الحالات التالية :

١ ـ حيث لا يكون هناك اشتراك مع حيدانات اخرى .

٢ ـ حيث لم تتعرض وظائف الفرد وأنشطته في جملتها لتلف خطير(٦) .

أما أن الشاذين ليسوا بهذا المعنى من المنحطين ، فهو ما يتأكد من جملة من الوقائع :

١ ـ يُلحظ الشذوذ لدى أفراد لا يعانون من حيدانات خطيرة اخرى .

٢ ـ يلحظ كذلك لدى افراد لم يصب نشاطهم العام بخلل ، بل من الممكن أن يكون تطورهم الاخلاقي والفكري قد بلغ مستوى سامياً(٧) .

٣ ـ ان اخذنا بوجهة نظر أعم من وجهة النظر السريرية ، طالعنا مجموعتان من الوقائع تمنعاننا من اعتبار الشذوذ وصمة انحطاط :

أ ـ لا يجوز ان ننسى أن الشذوذ كان يمارس على نطاق واسع ، بل يكاد يجوز لنا القول إنه كان مؤسسة ذات شأن لدى شعوب العصر القديم ، في أوج مراحل حضارتها .

ب ـ ان الشذوذ منتشر على أوسع نطاق لدى الاقوام البدائية والمتوحشة ، على حين ان اسم الانحطاط لا يطلق في العادة إلا على المدنيات المتقدمة وحدها (إ . بلوخ) . بل إن للمناخ والعِرق ، حتى لدى مختلف شعوب اوروبا المتمدينة ، تأثيراً كبيراً في شيوع الشذوذ وفي الموقف الاخلاقي منه(٨) .

---

(٦) تبياناً لمدى الحيطة الواجبة عند تشخيص حالة انحطاط ، ولمدى ضآلة اهمية هذا التشخيص على الصعيد العملي ، سنورد المقطع التالي بقلم موبيوس : « لو القينا نظرة شاملة على المجال الفسيح للظاهرات التي اتفق على تسميتها بالانحطاطية ، والتي ما عدونا ان سلطنا عليها هنا بصيصا من ضوء ، لادركنا مدى ضآلة الأهمية التي ينبغي لنا ان نعلقها على تشخيص الانحطاط » . (**حول الانحطاط ، مسائل فاصلة في حياة الاعصاب والنفس** ، المجلد ٣ ، ١٩٠٠) .

(٧) لا مناص لنا من التسليم مع انصار « اللواط » بأن عدداً من ابرز رجال التاريخ كانوا شاذين ، بل ربما شاذين شذوذاً تاماً .

(٨) ميز بعضهم في دراسة الشذوذ بين وجهة النظر المرضية ووجهة النظر الانتروبولوجية . و إ . بلوخ (**مساهمات في اتيولوجيا السيكوباتية الجنسية** ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣) هو الذي اجرى هذا التمييز . وهو الذي اوضح ايضاً مدى انتشار الشذوذ لدى الشعوب المتحضرة في العصر القديم .

الطابع الخِلقي للشذوذ ـ عدّ الشذوذ خلقياً لدى الشاذين المطلقين وحدهم ،وتوكيداً لذلك اعتمدت شهادة المرضى انفسهم بزعمهم انهم ما عرفوا قط ، في اي فترة من فترات حياتهم ، اتجاهاً آخر لغريزتهم الجنسية . غير ان وجود فئتين اخريين من الشاذين ، وعلى الأخص فئة الشاذين العارضين ، لا يتفق مع الفرضية القائلة بالطابع الخلقي للشذوذ . ولهذا يميل انصار هذه الفرضية ميلاً سافراً الى عزل فئة الشاذين المطلقين عن الفئات الاخرى ، مما يعني عدولهم عن تفسير واحد وعام للشذوذ . ومن هذا المنطلق يتعين التسليم بأن للشذوذ في عدد من الحالات طابعاً خلقياً ، بينما منشؤه في غير هذه الحالات مغاير .

على النقيض من هذا التصور ، هناك التصور الذي يقول ان الشذوذ سمة **مكتسبة** للغريزة الجنسية ، وذلك بالاستناد الى الوقائع التالية :

١ ـ من الممكن أن نهتدي لدى العديد من الشاذين ، وحتى لدى الشاذين المطلقين ، الى خبرة جنسية في مطلع حياتهم لا تعدو الجنسية المثلية ان تكون استطالة لها وعقبى .

٢ ـ ان الظروف الخارجية الموائمة أو غير الموائمة هي التي ثبّتت الشذوذ في وقت لاحق لدى آخرين ، وهم ايضاً كثر (انحصار المعاشرة بأشخاص من نفس الجنس ، التلاصق في زمن الحرب ، الاقامة في السجن ، الخوف من الاخطار المترتبة على العلاقات الجنسية الغيرية ، العزوبة ، العنَّة ، الخ) .

٣ ـ في مقدور الايحاء التنويمي إلغاء الشذوذ ، وهو أمر قمين بأن يبعث على العجب الشديد في حال التسليم بالطابع الخِلقي .

إن أخذ هذه الوقائع بعين الاعتبار قد يحمل بعضهم على إنكار وجود شذوذ خِلقي إنكاراً تاماً . ومن ثم قد يجوز القول (مع هافلوك إيليس) إن التمعن في فحص حالات الشذوذ الخِلقي المزعومة قمين في ارجح الظن بأن يميط اللثام عن وجود خبرة في الطفولة المبكرة كان لها على اتجاه الليبيدو تأثير حاسم ، وهذه الخبرة ، وان استبعدت من الذاكرة الشعورية ، قابلة للاسترجاع باستخدام خطة موائمة . وفي راي انصار هذا التصور أن الشذوذ ليس إلا مظهراً من المظاهر العديدة لتقلب الغريزة الجنسية ، يتعين بتأثير ظروف خارجية .

إن هذا الرأي ، الجدير بكل تصديق في الظاهر ، لا يصمد امام الواقعة

التالية التي يسهل التحقق منها : فكثيرون هم الافراد الذين مروا بمثل تلك الخبرات الجنسية في مطلع حياتهم (الإغواء ، الاستمناء المتبادل) دون ان يصيروا بنتيجة ذلك من الشاذين ، او على أية حال دون أن يتلبس شذوذهم صفة الدوام . ومن ثم نجدنا مدفوعين الى الافتراض بأن الخيار القطعي بين الطابع الخِلقي والطابع المكتسب لا يستوعب الوقائع كلها أو لا يتطابق مع مختلف كيفيات الشذوذ .

تفسير الشذوذ ـ سواء أأخذنا بالنظرية الأولى ام الثانية ، وسواء أكان الشذوذ خلقياً أم مكتسباً ، فإننا لا نكون فسرنا طبيعته . ففي الفرض الأول لا بد من تحديد ما هو فطري في الشذوذ ، اللهم إلا إذا قنعنا بالتفسير الفج الذي يقول إن الكائن الانساني يولد حاملاً معه غريزة جنسية مرتبطة مقدماً بموضوع جنسي معين . أما في الفرض الثاني فلنا أن نتساءل عما اذا كانت المؤثرات العارضة المختلفة كافية لتفسير السمة المكتسبة دون ان تكون هناك ضرورة لتدخل استعداد فردي ما ، وهذا ، بحسب ما نعلم ، يكاد يكون مستحيلاً .

دور الجنسية الثنائية ـ لقد تقدم كل من فرانك ليدستون LYDSTON وكيرنان KIERNAN وشيفالييه CHEVALIER على التوالي بنظرية لتفسير واقعة الشذوذ تتناقض والتصور الشعبي . فالكائن البشري ، بموجب هذا التصور ، لا بد أن يكون إما رجلاً وإما امرأة . أما العلم فيعرّفنا بحالات تختلط فيها الخصائص الجنسية اختلاطا يغدو من العسير معه تحديد الجنس ، وذلك من الناحية التشريحية اولا . فالأعضاء التناسلية لدى هؤلاء الافراد تجمع بين خصائص الذكورة والأنوثة (الخنوثة) . وفي بعض الحالات النادرة توجد الاعضاء التناسلية للجنسين جنباً الى جنب (الخنوثة الحقيقية) . أما الاكثر شيوعاً فأن يصيبها جميعا الضمور[٩] .

ان هذه المظاهر الشذوذية مفيدة من حيث انها تلقي ضوءاً لا متوقعاً على تشريح البنية السوية . فدرجة معينة من الخنوثة التشريحية لا تخرج عن

---

(٩) انظر آخر وصف مفصل للخنوثة البدنية لدى تاروفي TARUFFI : الخنوثة والعنة ، وكتابات نيوجباور NEWGEBAUER في عدة اجزاء من حولية الدرجة الوسطى الجنسية .

حدود السواء . واننا لنجد لدى كل فرد ، أذكراً كان أم أنثى ، آثاراً من العضو التناسلي للجنس المقابل . وهذه الآثار إما أن توجد وجوداً ضامراً فلا تؤدي أية وظيفة ، وإما أن تتكيف مع وظيفة مختلفة .

والتصور الذي يترتب على هذه الوقائع المعروفة منذ أمد طويل هو التصور القائل بوجود عضوية ثنائية الجنس في الأصل اتجهت ، في مسار تطورها ، نحو الجنسية الاحادية ، وحافظت في الوقت نفسه على بقايا ضامرة من الجنس المقابل .

كان من الممكن أن ننقل هذا التصور الى المضمار النفسي فنفهم الشذوذ ، في مختلف ضروبه ، على أنه تعبير عن خنوثة نفسية . والبت في المسألة كان يقتضي أن نتمكن من معاينة تطابق مطرد بين الشذوذ وبين العلامات النفسية والبدنية للخنوثة .

غير ان المشاهدات لا تؤيد هذا التصور . فالعلاقات بين النغولة النفسية والنغولة التشريحية الصريحة ليست وثيقة ولا مطردة الى الحد الذي زعمه بعضهم . وما نلقاه لدى الشاذين هو انخفاض عام في الغريزة الجنسية (هافلوك ايليس) وضمور طفيف في العضو ، وهذا شائع ، لكنه غير مطرد ، ولا حتى غالب . ومن ثم لا مفر لنا من التسليم بأن الخنوثة البدنية والشذوذ مستقلان واحدهما عن الآخر .

وكذلك عُلقت أهمية كبيرة على السمات الجنسية المسماة بالثانوية او الثالثية ، وعلى كثرة ترددها لدى الشاذين (هـ . ايليس) . وهذا في كثير من الاحيان صحيح ، لكن لا يجوز لنا ان نغفل عن أن هذه السمات الثانوية والثالثية كثيرة التردد ايضاً لدى افراد الجنس المقابل ، وتنم عن علامات خنوثة ، دون ان يكون لدى هؤلاء الافراد أنفسهم شذوذ في الموضوع الجنسي .

ان نظرية الخنوثة النفسية كانت ستبدو اقرب الى الوضوح لو اقترن الشذوذ بتحول مقابل في صفات الفرد النفسية والغريزية والطبيعية الاخرى الى صفات مميزة للجنس الآخر . لكن هذا الشذوذ الطبيعي لا نلتقيه بشيء من التواتر إلا لدى المرأة ؛ اما لدى الرجل فلا تتنافى سمات الرجولة مع الشذوذ . فإن أردنا التمسك بنظرية الخنوثة النفسية ، فلا بد على الأقل أن نضيف أنه ليس من المتيسر إقامة البرهان على ترابط مطرد بين مختلف تظاهراتها .

والأمر بالمثل فيما يتعلق بالخنوثة البدنية على حد ما يذهب اليه هلبان(١٠) HALBAN ؛ فضمور الاعضاء ونمو السمات الثانوية نسقان من الوقائع مستقل واحد عن الآخر نسبياً .

لقد وجدت الجنسية الثنائية في أفج أشكالها تعريفاً لها في تصريح أحد المحامين عن الشاذين الذكور : دماغ امرأة في جسم رجل . غير اننا لا ندري ما المقصـود بـ « دماغ امرأة » . والحق أن الرغبة في نقل المشكلة من المضمار السيكولوجي الى المضمار التشريحي لا جدوى منها ولا مبرر لها في آن معاً . والتفسير الذي يحاوله كرافت ـ ايبنغ يبدو أقدر على الاحاطة بالمشكلة من التفسير الذي يتقدم به اولريش ULRICH ، لكنه لا يختلف عنه مع ذلك اختلافاً جوهرياً . يرى كرافت ـ ايبنغ أن الثنائية الجنسية للاعضاء التناسلية عند الفرد يقابلها مركز مخي مزدوج ، واحد ذكري والآخر انثوي . وينمو هذان المركزان، فيما يرى ، في عهد البلوغ ، وعلى الاخص تحت تأثير الغدد التناسلية التي يكونان ، في الاصل على الاقل ، مستقلين عنها . غير أننا نستطيع ان نقول عن هذه « المراكز » المخية ما سبق قوله عن الأدمغة المذكرة والمؤنثة . ثم اننا نجهل ، فضلاً عن ذلك ، ما اذا كان ثمة وجود اصلاً لتوطنات مخية (مراكز) للجنسية مشابهة للتوطنات التي نسلم بوجودها بالنسبة الى وظيفة الكلام مثلاً .

ومهما يكن من أمر فلنستبق مما تقدم فكرتين برسم تفسيرنا للشذوذ : أنه ينبغي أولاً ان نأخذ في اعتبارنا وجود استعداد جنسي ثنائي ، وان كنا لا نعرف كنهه التشريحي ؛ وانه ينبغي ثانياً ان نهتم بدراسة الاضطرابات التي تطرأ على الغريزة الجنسية في أثناء تطورها(١١) .

---

(١٠) ج . هلبان : **تكوين الخصائص الجنسية** ، في **ملفات الطب النسائي** ، المجلد ٧٠ ، ١٩٠٣ . انظر ايضاً ثبت المراجع الوارد فيه .

(١١) كان اول مؤلف يلجأ الى الجنسية الثنائية لتفسير الشذوذ (بحسب ما ورد في هامش في المجلد السادس من **حولية الدرجة الوسطى الجنسية**) هو إ . غلاي GLEY ، وذلك في مقال بعنوان « انحرافات الغريزة الجنسية » نشره في « المجلة الفلسفية » REVUE PHILOSOPHIQUE في شهر كانون الثاني ١٨٤٤ . ومن المفيد اصلاً ان نلاحظ ان اكثر المؤلفين الذين يردون الشذوذ الى الجنسية الثنائية يلحون على الدور الذي تضطلع به =

الموضوع الجنسي لدى الشاذين ـ تفترض نظرية الخنوثة النفسية ان موضوع الشاذين الجنسي هو على عكس الموضوع السوي . فالشاذ تجتذبه ، مثله مثل المرأة ، الصفات الرجولية للجسم والروح الذكريين . فهو يستشعر نفسه امرأة ويطلب الرجل .

غير ان ذلك وإن صدق على عدد كبير من الشاذين ، لا يمثل خاصية عامة للشذوذ . فمما لا جدال فيه ان عدداً من الشاذين الذكور احتفظوا بالخصائص النفسية لجنسهم ولا يظهرون إلا قدراً ضئيلاً من الخصائص الثانوية للجنس المقابل ، وهم في الواقع يطلبون في الموضوع الجنسي الخصائص النفسية للأنوثة . ولو كان الأمر على غير ذلك ، لعز علينا ان نفهم لماذا يحاكي المتعهرون الذكور الذين يعرضون انفسهم على الشاذين ، اليوم كما في العصور الماضية ، المرأة في ملبسها ومظهرها الخارجي . ولو كان الأمر

= الجنسية الثنائية ليس لدى الشاذين وحدهم ، بل كذلك لدى اولئك الذين كان تطورهم سوياً ، ويرون في الشذوذ بالتالي نتيجة اضطراب في النمو . هكذا ينوه شيفالييه (**الشذوذ الجنسي** ، ١٨٩٣) وكرافت ـ ايبنغ (**مساهمة في توضيح المشاعر الجنسية المتضادة** ، في **حوليات الطب العقلي والطب العصبي** ، المجلد ١٣) بـأن عددا كبيرا من المشاهدات يثبت ان « المركز الأخير (مركز الجنس البديل) يواصل وجوده ولو بصورة كامنة » . ويزعم الدكتور أردوين ARDUIN (**النسوية والدرجة الوسطى الجنسية** ، في **حولية الدرجة الوسطى الجنسية** ، المجلد ٢ ، ١٩٠٠) أنه « توجد في كل كائن بشري عناصر مذكرة ومؤنثة تنمو بعكس جنس الفرد ان يكن هذا الفرد من الجنسيين الغيريين ... » (انظر ايضاً م . هيرشفيلد : **التشخيص الموضوعي للجنسية المثلية**، في **حولية الدرجة الوسطى الجنسية** ، المجلد ١ ، ١٨٩٩ ، الصفحة ٨ وما يليها) ـ ويؤكد ج . هرمان HERMAN (**التكوين، قانون الإنسان**، المجلد ٩ ، **الليبيدو والهوس**، ١٩٠٣) أنه توجد « لدى كل امرأة بذور وسمات ذكرية ، ولدى كل رجل ، على العكس ، بذور وسمات انثوية » .

[ادعى ف . فليس FLIESS (**انطفاء الحياة**) في عام ١٩٠٦ أبوة فكرة الجنسية الثنائية من حيث قابليتها للتطبيق على الافراد قاطبة] (أضيف سنة ١٩١٠) . [أما في اوساط غير الاختصاصيين فتعزى فكرة الجنسية الثنائية البشرية الى أ . فايننغر WEININGER ، وهو فيلسوف وافته المنية في مطلع العمر ، وقد ألف كتاباً لا يتسم بقدر كبير من التبصر على أساس هذه الفكرة (**الجنس والطبع** ، ١٩٠٣) . ومما تقدم يتأكد لنا بطلان ذلك الادعاء] (اضيفت سنة ١٩٢٤) .

على غير ذلك ، لكانت هذه المحاكاة معاكسة للمثل الاعلى للشاذين . ومن الواضح لدى الاغريق ، حيث كان أكثر الافراد رجولة ينضوون تحت لواء الشذوذ ، أن ما كان يهيج شهوتهم ليس ما هو ذكري لدى الغلام ، وإنما ما تتصف به اجسام الغلمان من صفات انثوية ، وكذلك ما تتصف به نفوس هؤلاء من خجل وحياء وتواضع ورغبة في التعلم وحاجة الى الحماية . وكان الغلام اذا ما شب عن الطوق وصار رجلاً ، لا يعود موضوعاً جنسياً للرجال وقد يطلب بدوره المراهقين . وفي هذه الحالة ، كما في حالات اخرى كثيرة ، لا ينشد الشاذ موضوعاً يخص الجنس الذي ينتمي اليه هو ، وانما الموضوع الجنسي الذي يجمع في ذاته بين الجنسين كليهما : فهي تسوية بين ميلين ، أحدهما يسعى الى الرجل وثانيهما الى المرأة ، لكن بشرط ـ وهو شرط صريح ـ أن يكون موضوع الجنسية متصفاً بالخصائص التشريحية للرجل (جهاز تناسلي ذكري) ؛ [فلكأنها صورة للطبيعة الثنائية الجنس(١٢)] (اضيف سنة ١٩١٥) .

(١٢) [لئن لم يتأتَّ للتحليل النفسي الى يومنا هذا ان يوضح توضيحاً كاملاً اصول الشذوذ ، فقد امكن له على كل حال ان يكتشف الاوالية النفسية لتكوينه وان يعرض المسألة عرضاً جديداً . فقد تسنى لنا ان نتحقق ، في جميع الحالات التي فحصناها ، من ان اولئك الذين سيصيرون فيما بعد من الشاذين يمرون في السنوات الاولى من طفولتهم بطور قصير الأمد تتثبت فيه الغريزة الجنسية بقوة على المرأة (في أغلب الاحيان على الأم) ، وانهم بعد ان يتخطوا هذه المرحلة يتماهون مع المرأة ويغدون الموضوع الجنسي لأنفسهم ، أي يطلبون ، من منطلق النرجسية ، يافعين يشبهونهم ويريدون ان يحبوهم كما احبتهم امهم هم أنفسهم . وقد تسنى لنا ايضاً أن نشاهد في كثير من الاحيان أن من يقال لهم بالشاذين ليسوا البتة عديمي الحساسية بمفاتن المرأة ، ولكنهم يحولون الإثارة التي يحدثها فيهم الجنس الآخر الى موضوع ذكري . وهم يكررون بذلك مدى حياتهم الاوالية التي كانت السبب في نشوء شذوذهم . **فاندفاعهم** القهري نحو الرجل مشروط بهرب دائم من المرأة] (اضيف سنة ١٩١٠) .

[يأبى التحليل النفسي كل الإباء التسليم بأن الجنسيين المثليين يؤلفون فئة لها صفاتها الخاصة وقابلة للفصل عن سائر بني البشر . وقد تسنى له ، من خلال دراسته لإثارات اخرى غير الإثارات الجنسية السافرة ، أن يقرر ان الافراد كلهم ، أياً ما كانوا ، قادرون على اختيار موضوع من جنسهم نفسه ، وانهم جميعاً قاموا بهذا الاختيار في لاشعورهم . بل في وسعنا ان نجزم ان المشاعر الايروسية التي تنصب على اشخاص من الجنس نفسه تلعب في الحياة النفسية السوية دوراً لا يقل اهمية عن ذاك الذي تلعبه المشاعر المنصبة على الجنس =

يتميز الشذوذ لدى المرأة بسمات اقل تعقيداً . فالشاذات الايجابيات

= الآخر ، وان اهميتها كعلة لنشوء الحالات المرضية لهي اكبر بعد . بل ان التحليل النفسي يرى ان اختيار الموضوع بصرف النظر عن جنسه، اي التعلق بمواضيع مذكرة ومؤنثة على حد سواء ، على نحو ما يتبدى في طفولة الرجل كما في طفولة الشعوب ، هو الحالة الاصلية ، وان هذه الحالة لا تتطور الى جنسية سوية او الى شذوذ إلا بنتيجة تقييدات تفرض تارة في اتجاه وطورا في آخر . وعلى هذا فإن الاهتمام الجنسي الحصري للرجل بالمرأة ليس في نظر التحليل النفسي من بديهيات الامور ، وليس مجرد ضرب من انجذاب ذي طبيعة كيماوية ، بل يطرح معضلة لا بد لها من توضيح وتعليل . وانما بعد البلوغ فحسب يتخذ الموقف الجنسي شكلاً نهائياً ، ويأتي القرار عندئذ نتيجة لسلسلة من العوامل ، مردها جزئياً الى جبلَّة الفرد ، وجزئياً الى علل عارضة لا نعرفها كلها بعد . ومن الممكن ، بطبيعة الحال ، ان تكتسب بعض هذه العوامل اهمية قصوى فتحدد النتيجة باتجاه اوبآخر . غير انه لا مناص لنا من التسليم ، إجمالاً ، بأن تنوع العوامل المحدِّدة ينعكس في تعدد المواقف الجنسية . وفي حالات الشذوذ تلحظ على الدوام غلبة عناصر استعدادية اثرية واواليات نفسية بدائية . ويلوح أن **الاختيار الموضوعاني النرجسي والحفاظ على الاهمية الايروسية للمنطقة الشرجية** هما السمتان الاكثر جوهرية لانماط الشذوذ . على انه لا جدوى على الاطلاق من الاستناد الى خصائص جبلية من هذا النوع لفصل حالات الشذوذ القصوى عن غيرها . وبالفعل ، ان السمات التي نلحظها في الحالات القصوى قد تتكرر ايضاً ، وان بدرجة اقل ، في الحالات الانتقالية،وحتى لدى افراد أسوياء كل السواء . ان انماط الشاذين يمكن ان تتنوع كيفياً ، لكن التحليل يثبت لنا ان الفروق الشارطة لها لا تتنوع الاكمياً.وفي جملة المؤثرات العرضية التي تحدد اختيار الموضوع الجنسي ميزنا بوجه خاص الاحباط (أي تخوفاً مبكراً من النشاط الجنسي) ، كما استرعى انتباهنا الدور الهام الذي يلعبه حضور الوالدين . وبالفعل ، ان غياب أب قوي في الطفولة يمهد الطريق في كثير من الاحيان امام الشذوذ . واخيراً ، لا يجوز ان نقيم أية صلة بين الشذوذ حيال الموضوع الجنسي وبين وجود سمات جنسية خنثوية لدى الفرد ، إذ لا علاقة مطردة بين كلتا الظاهرتين] (عدل سنة ١٩١٥) .

[اكد فيرنزي FERENCZI ، في مقال له بعنوان **حول تصنيف الجنسية المثلية الذكرية** (**المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، المجلد ٢ ، ١٩١٤) اكد بصدد مسألة الشذوذ على جملة من النقاط الهامة . فهو يحتج بحق على ما تتعرض له عبارة « الجنسية المثلية » من سوء استعمال (فيقترح استبدالها بتسمية انسب : « الايروسية الاستجناسية HOMOÉROTISME) اذ تشمل بها سلسلة بكاملها من الحالات التي تختلف اختلافاً كبيراً في اهميتها من الناحيتين العضوية والنفسية على السواء ، وان جمعت بينها سمة الشذوذ . ويطالب بتمييز نمطين على الاقل : من جهة اولى **الايروسي الاستجناسي الذاتي** =

يبدين في كثير من الأحيان عن خصائص بدنية ونفسية ذكرية ويطلبن الأنوثة في

= الذي يستشعر نفسه أنثى ويتصرف كأنثى ، ومن الجهة الثانية **الايروسي الاستجناسي الموضوعي** الذي يتصف بكل سمات الذكورة ولكنه يقايض **الموضوع** الانثوي بموضوع من نفس جنسه . **وهو** يرى في النمط الأول « حالة بيجنسية » حقيقية بالمعنى الذي يعطيه ماغنوس هيرشفيلد لهذه الكلمة . وبالمقابل يلجأ الى مصطلح أقل توفيقاً في نظرنا عندما يعدّ الثاني مريضاً مصاباً بالعصاب الوسواسي . ويضيف قوله ان النمط الايروسي الاستجناسي الموضوعي **هو** وحده الذي يقابل الميل الى الشذوذ بالمقاومة ، **وهو** وحده الذي يتوفر له بعض الحظ في الاستجابة للعلاج النفسي . ومع إقرارنا بوجود هذين النمطين فعلا ، نبيح لأنفسنا ان نضيف القول ان عددا غير قليل من الاشخاص تمتزج لديهم درجة محددة من الايروسية الاستجناسية الذاتية بقدر من الايروسية الاستجناسية الموضوعية .

وفي الآونة الاخيرة سلطت أبحاث علم الاحياء ، وفي المقام الأول ابحاث يوجين شتايناخ STEINACH ضوءاً باهراً على الشروط العضوية للايروسية الاستجناسية ، وكذلك على السمات الجنسية الثانوية بوجه عام .

فقد أجريت تجارب ، قرن فيها الخصاء بزرع غدد الجنس الآخر ، على انواع شتى من الثدييات ، فأمكن تحويل الذكور الى اناث ، وبالعكس . وقد بدت آثار هذا التحول واضحة بقدر متفاوت الكمال في السمات الجنسية البدنية وفي الموقف النفسي الجنسي (الايروسية الذاتية والموضوعية) . ويقال ان العامل المحدد لهذا التحول الجنسي **ليس** ذلك الجزء من الغدة الذي يؤلف الخلايا التناسلية ، وانما الغدة التي تشكل النسيج البيني للعضو (« غدة البلوغ ») .

وقد امكن في احدى الحالات إحداث تحول جنسي لدى رجل مصاب بسل الخصيتين . فقد كان هذا الرجل يسلك حتى ذلك الحين مسلك الجنسي المثلي السلبي ، اي مسلكا انثويا ، وقد وجدت لديه صفات انثوية ثانوية بارزة (تراكم شحمي في الثديين والردفين ، الخ) . وبعد ان زرعت له خصية غير هابطة من مريض آخر ، سلك مسلك الذكور وطفق يوجه طاقته الليبيدوية توجيها سويا نحو المرأة . واختفت لديه في الوقت نفسه الصفات الانثوية البدنية (1 . ليبشوتز LIPSCHUTZ : **غدة البلوغ ومفاعيلها** ،بيرن ، ١٠١٩)

على أنه لا مسوغ لأن نتوقع ان تتمخض هذه التجارب الشائقة عن أساس جديد لنظرية الشذوذ ، ومن السابق لأوانه ان نفترض انها قمينة بأن تهدينا الى طريق جديد للوصول الى « شفاء » الجنسية المثلية بوجه عام . وينطق فليس بالحق اذ يقول ان هذه التجارب لا تطعن في صحة النظرية القائلة بوجود استعداد عام للجنسية الثنائية لدى الحيوانات العليا . ويلوح لنا على العكس انه من الأرجح ان متابعة هذا النوع من التجارب كفيلة بتقديم برهان تأييدي لفرضية الجنسية الثنائية] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

موضوعهن الجنسي ، وان كان التبحر في معرفة الوقائع من شأنه ان يكشف ، هنا ، ايضاً ، عن قدر اعظم من التنوع .

الهدف الجنسي لدى الشاذين - إن ما ينبغي تأكيده هنا في المقام الأول هو ان الهدف الجنسي في الشذوذ لا يتسم على الدوام بصفات متماثلة . فالجماع عن طريق الشرج لدى الرجال ليس الشكل الوحيد للاتصال الجنسي لدى الشاذين . وكثيراً ما يكون الاستمناء هدفهم الأوحد ، كما ان الهدف الجنسي عندهم قد تصيبه موجات متعاقبة من الانكماش ، حتى لا يتبقى منه سوى محض دفق عاطفي ، وهذه حالة أقل تواتراً في الحب الجنسي الغيري . كذلك فإن الاهداف الجنسية للشذوذ لدى النساء متنوعة ؛ وتتقدم من بين هذه الاهداف الملامسة عن طريق الاغشية المخاطية الفموية .

خلاصة - لئن لم يتيسر لنا أن نجد في المعطيات المتاحة لنا تفسيراً للشذوذ ، فقد تسنى لنا على كل حال ان نصل الى تصورات قد تكون أبعد اهمية بالنسبة الينا من احتمال فك لغز المعضلة المطروحة . فقد تنبهنا الآن للخطأ الذي كنا وقعنا فيه إذ أقمنا روابط أوثق مما ينبغي بين الغريزة الجنسية والموضوع الجنسي . وتفيدنا الخبرة ، التي تزودنا بها الحالات التي نعدها غير سوية ، أنه يوجد بين الغريزة الجنسية والموضوع الجنسي لحام قد يغيب عن انتباهنا في الحياة الجنسية السوية حيث تبدو الغريزة وكأنها تحتوي بذاتها من الأساس موضوعها . وهذا ما يدعونا الى أن نفصل ، الى حد ما ، بين الغريزة والموضوع . ومباح لنا ان نفترض ان الغريزة الجنسية توجد في اول الأمر مستقلة عن موضوعها ، وان ظهورها لا يتعين بإثارات صادرة عن الموضوع .

ب - اللابالغون والحيوانات باعتبارهم مواضيع جنسية

على حين ان الشاذين ، الذين يختارون موضوعهم الجنسي من غير الجنس الذي يفترض فيه ان يجذب الاسوياء ، يوحون للمراقب انهم أفراد لا يشكون ، خلا شذوذهم ، من أي عيب آخر ، يبدو على العكس الاشخاص الذين يتخذون اللابالغين (الاطفال) موضوعاً لهم وكأنهم حالات انحراف قائمة بذاتها . ويندر ان يكون الاطفال الموضوع الجنسي الوحيد ؛ وفي العادة لا يؤدون هذا الدور إلا حين يعزم فرد من الافراد ، وقد صار جباناً عنيناً ، على

اللجوء الى مثل هذا الحل البديل ، أو إلا حين لا تجد الغريزة الجنسية ، وقد اندفعت واستبدت ، موضوعاً اكثر مواءمة لاشباعها . على أنه من المفيد ان نلاحظ ان الغريزة الجنسية تحتمل تنوعاً كبيراً ، وانها قد تنحط من حيث الموضوع الى مستوى لا يهبط اليه الجوع ، المتعلق بمواضيعه الخاصة تعلقاً اقوى بكثير ، إلا في حالات قصوى . ويصدق هذا ايضاً على مجامعة الحيوانات ، وما هي على ندرة كبيرة عند أهل الريف ، وقد يصح وصفها بكون الجذب الجنسي فيها يتخطى الحدود التي يعينها النوع .

قد يتمنى بعضهم ، لأسباب جمالية ، لو كان في مقدوره ان يعزو الى المرض العقلي هذه الحالات الخطيرة من انحراف الغريزة الجنسية . لكن ذلك لا يبدو امراً ممكناً . فالخبرة تفيدنا ان اضطرابات الغريزة الجنسية لا تختلف في هذه الحالات عما هي عليه لدى الاسوياء ، وانها شائعة لدى شعوب بكاملها ولدى بعض الطبقات الاجتماعية . فالتغرير بالاطفال يقع بكثرة تبعث على القلق لدى معلمي المدارس ونظّارها ، بالنظر الى مواتاة الظروف لهم في هذه الاحوال . ونلتقي هذه الانحرافات عينها لدى المرضى العقليين ، ولكن بدرجة أشد ، أو تصير حصرية - وهو أمر بالغ الدلالة - فتحل محل الإشباع الجنسي السوي .

ان هذه الصلات الملفتة للنظر بين مختلف التنوعات الجنسية ، التي قد تؤلف سلسلة تمتد من الحالة السوية الى المرض العقلي ، تنطوي في الحقيقة على مغاز كبيرة . ففي مقدورنا ، ان شئنا ، أن نستنتج منها أن تظاهرات الجنسية هي من ذلك النوع الذي لا يقع إلا ضمن أضيق الحدود تحت سلطان النشاط النفسي الاعلى ، حتى في الحياة السوية . وتدلني خبرتي على ان الشخص الذي يُعد لاسوياً من وجهة النظر الاجتماعية والاخلاقية ، في أي مضمار من مضامير الحياة ، هو على الدوام لاسوي في حياته الجنسية ايضاً . لكن عدداً كبيراً من اللاأسوياء الجنسيين يضارعون سوية الناس من الجوانب الاخرى كافة ويتمثلون مثلهم تراث حضارتنا التي لا تزال نقطة ضعفها تكمن في الجنسية تحديداً .

على أن أعم ما يمكننا استخلاصه مما تقدم هو أن نوع الموضوع الجنسي وقيمته ليس لهما إلا دور ثانوي في جملة من الظروف ولدى عدد غفير من الافراد . وينبغي ان نخلص من ذلك الى أن الموضوع ليس هو العنصر الاساسي

والثابت في الغريزة الجنسية[١٣] .

٢ ـ الحيدانات عن الهدف الجنسي

إن ما يُعتبر الهدف الجنسي السوي هو اتحاد الاجزاء التناسلية في الجماع على نحو يفضي الى حل التوتر الجنسي والى انطفاء الغريزة لحين من الزمن ـ وهو إشباع مماثل من بعض وجوهه للشبع في الجوع . غير اننا نلتقي ، حتى في العملية الجنسية الاكثر سواء ، بذوراً قمينة بأن تؤدي ، فيما لو نمت ، الى أنواع من الشذوذ تسمى **بالانحرافات**. فثمة علاقات وسيطة تسبق الفعل الجنسي ومنها بعض الملامسات أو بعض الاثارات البصرية ، وهذه الدرجات المتوسطة تُعد اهدافاً جنسية تمهيدية . وهذه الافعال التمهيدية تصحبها من جهة أولى لذة ، وتزيد من الجهة الثانية من شدة التهيج الذي ينبغي ان يدوم الى انجاز الفعل الجنسي . وقد اكتسبت احدى هذه الملامسات، وأعني الملامسة بالأغشية المخاطية الفموية ـ وتعرف في العادة بالقبلة ـ قيمة جنسية رفيعة لدى شعوب كثيرة ، ومنها الشعوب المتمدينة ، وهذا على الرغم من أن أجزاء الجسم المعنية لا تتبع الجهاز التناسلي ، بل تؤلف مدخل القناة الهضمية . وتتوفر هنا ايضاً وقائع تسمح بربط الانحرافات بالحياة السوية ويمكن ان تقدم لنا عناصر للتصنيف . فالانحرافات يمكن ان تُسلك في عداد سلسلتين من الظاهرات :

أ ـ **تعديلات تشريحية** على أجزاء الجسم المخصصة للاتصال الجنسي .

ب ـ **وقفات** عند بعض العلاقات الوسيطة التي ينبغي المرور بها في حالات السواء بسرعة لبلوغ الهدف الجنسي النهائي .

---

(١٣) [الفارق الألفت للنظر بين حياتنا الايروسية وحياة القدامى الايروسية يتمثل في ان القدامى كانوا يشددون على الغريزة ، بينما نشدد نحن على الموضوع . في العصور القديمة كانت الغريزة هي التي تمجد، فتسبغ من ثم بدورها قيمة سامية على الموضوع حتى ولو كان حقيرا . اما في العصور الحديثة فنحن نزدري النشاط الجنسي بحد ذاته ولا نلتمس له المسوغات بنوع ما إلا في ما نجده في موضوعه من صفات ومزايا] (اضيف سنة ١٩١٠) .

أ ـ التعديلات التشريحية

المبالغة في تقدير الموضوع الجنسي ـ إن القيمة التي تُعلق على الموضوع الجنسي من حيث أنه مخصص لإشباع الغريزة الجنسية لا تقتصر في العادة على الاجزاء التناسلية ، بل تمتد الى كامل جسم هذا الموضوع وتنزع الى استيعاب جميع الاحاسيس التي تصدر عنه . وتطال المبالغة في التقدير المجال النفسي ايضاً وتتجلى في عماء الفرد وبعده عن الاعتدال والقسط في تقييم المزايا النفسية للموضوع الجنسي وكمالاته ، وفي انصياع سهل للأحكام التي تصدر عنه . وسرعة التصديق التي تستتبع الحب مصدر مهم للسلطة ، ان لم يكن مصدرها الأصلي[١٤] .

ان هذه المبالغة في التقييم الجنسي ، التي لا تتفق مع هدف جنسي محدود بالجهاز التناسلي الصرف ، هي التي تقود الى توظيف أجزاء اخرى من الجسم للاستعمال الجنسي[١٥] .

ومن الممكن ان يدرس دور المبالغة في التقييم الجنسي على أفضل وجه لدى الرجل الذي باتت حياته الايروسية وحده في متناول البحث ، بينما لا يزال حجاب صفيق يُضرب على الحياة الايروسية للمرأة بفعل ضمور مصدره

---

(١٤) لا يسعني في هذا المقام إلا ان أعيد الى الاذهان ما يبديه المنوَّمون من خضوع ساذج لمنوِّمهم ، وهذا ما جعلني افترض ان طبيعة التنويم تتمثل في التثبيت اللاشعوري لليبيدو على شخص المنوِّم (بواسطة العامل المازوخي في الغريزة الجنسية) .

[تراءى لفيرنزي أن في مقدوره ان يربط بين القابلية للايحاء وبين « العقدة الوالدية » (**حولية البحوث التحليلية النفسية والمرضية النفسية** ، المجلد ١ ، ١٩٠٩)] (اضيف سنة ١٩١٠) .

(١٥) [إلا انه يجدر بنا ان نلاحظ ان المبالغة في التقييم الجنسي لا تحدث دوماً وابداً عند اختيار الموضوع ، وسوف نصل فيما بعد الى تفسير آخر اكثر مباشرة للدور الجنسي لأجزاء الجسم الاخرى] (اضيف سنة ١٩١٥) . ان ما تذرع به هوش HOCHE وإ . بلوخ من « شهية الى التهيج » لتفسير امتداد الاهتمام الجنسي الى أجزاء اخرى من الجسم غير الاجزاء التناسلية لا يبدو لي على تلك الدرجة من الاهمية التي يعزوها اليه المؤلفان . فمختلف الطرق التي يسلكها الليبيدو تتصل فيما بينها بصلات تشبه تلك التي تربط بين الآنية المستطرقة ، ولا بد أن نأخذ في اعتبارنا ظاهرة المجاري الجانبية .

الحضارة، وكذلك بفعل تكتم تقليدي وقدر من الافتقار الى الصدق[١٦] .

الاستخدام الجنسي للاغشية المخاطية الفموية ـ يعتبر استخدام الفم كعضو جنسي انحرافاً حين تلامس الشفتان (أو الفم) الاعضاء التناسلية للشريك ، لا حين تتلامس الاغشية المخاطية الفموية للشريكين . وهذا الاستثناء للقبلة هو بمثابة همزة وصل نحو الفعل السوي . وحين يأنف المرء من هذه الممارسات السارية المفعول منذ بدايات البشرية ويعدها انحرافات ، فإنما يسلم زمامه **لشعور بالقرف** يقصي عنه أشباه هذه الاهداف الجنسية . غير أن الحدود التي ترسم لشعور القرف هذا غالباً ما تكون اعتبارية . فمن يقبل بشغف شفتي فتاة جميلة قد يشمئز من استخدام فرشاة أسنانها، برغم أنه ليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن فمه هو ، وإن كان لا يقرفه ، أشهى من فم الفتاة . ولنلحظ هنا الدور الذي يلعبه القرف : فهو يحول دون المبالغة في التقييم الليبيدوي للموضوع الجنسي ، وان كان في مقدورها ايضاً ان تتغلب عليه . وعلى هذا ، فالقرف واحدة من القوى التي تسهم في تحديد الاهداف الجنسية . وبالإجمال ، لا يشمل الاستبعاد بداعي القرف الجهاز التناسلي . إلا أنه لا ريب في أن الاعضاء التناسلية للجنس الآخر قد تكون بحد ذاتها مثيرة للقرف ، وأن هذا الموقف هو سمة مميزة لجميع المصابين بالهستيريا ، وبخاصة منهم النساء . غير ان قوة الغريزة الجنسية تتجلى في ما تضربه من صفح عن هذا القرف .

الاستخدام الجنسي للفتحة الشرجية ـ نرى هنا بمزيد من الوضوح بعد أن القرف من استخدام الفتحة الشرجية كهدف جنسي هو الذي يصم هذا الاستخدام بوصمة الانحراف . وإذ أبدي رأياً كهذا ، لا أقصد أن أقول إن الحجة التي يُعلل بها هذا القرف (على أساس أن هذا الجزء من الجسم وظيفته الإخراج ، وهو على تماس مباشر مع المواد المثيرة بحد ذاتها للتقزز) تعادل في القيمة الاسباب التي تتذرع بها الفتيات الهستيريات لتعليل قرفهن من الجهاز

(١٦) [في حالات معروفة نستطيع ان نلاحظ ان المرأة لا تتخذ الرجل موضوعاً لـ « مبالغة» في التقييم الجنسي » ، لكن من النادر جداً ألا تنصب هذه المبالغة من جانب المرأة على طفلها] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

التناسلي الذكري (على أساس انه يفيد في التبول) .

ان الدور الجنسي للغشاء المخاطي الشرجي ليس محدوداً بالاتصال بين الرجال ، ورجوح كفته ليس العلامة الفارقة للشذوذ . بل يلوح على العكس ان مضاجعة الذكور قائمة على أساس المماثلة بينها وبين الفعل الذي يتم مع امرأة ، على حين ان الاستمناء المتبادل يمثل الهدف الجنسي الذي يقدمه الشاذون في الافضلية على سواه .

الدور الجنسي لأجزاء اخرى من الجسم ـ ان امتداد الجنسية الى اجزاء اخرى من الجسم لا يأتينا بشيء جديد كل الجدة في مختلف تنوعاته ، ولا يزيدنا معرفة بالغريزة الجنسية التي تؤكد على هذا النحو إرادتها في الاستحواذ على الموضوع الجنسي بتمامه . لكن فضلاً عن المبالغة في التقييم الجنسي ، نلحظ في حالات التعدي التشريحي عنصراً جديداً ليس معلوماً بما فيه الكفاية لغير أهل الاختصاص . فبعض أجزاء الجسم ، كالاغشية المخاطية الفموية والشرجية ـ التي تؤكد جميع هذه الممارسات على أهميتها ـ قد تطالب بأن تُعد اعضاء تناسلية وأن تعامل على هذا الاساس . وسوف نرى أن هذا النزوع يبرره نمو الغريزة الجنسية وأنه يتحقق فعلياً في اعراض بعض الحالات المرضية .

بدائل غير ملائمة للموضوع الجنسي : **التميمية** ـ مثيرة حقاً للاهتمام هي الحالات التي يستبدل فيها الموضوع الجنسي السوي بموضوع آخر متصل به ولكنه غير موائم على الاطلاق للهدف الجنسي السوي . ولقد كان من الافضل ، توخياً لمزيد من الوضوح في التصنيف ، دراسة هذه الفئة الشائقة من الحيدانات ضمن إطار الحيدانات عن الموضوع الجنسي . غير اننا أرجأنا دراستها الى ما بعد إحاطتنا **بالمبالغة في التقييم الجنسي** ، هذه المبالغة التي بها ترتبط هذه الظاهرات التي تفضي الى العزوف عن الهدف الجنسي .

ان بديل الموضوع الجنسي هو بالاجمال جزء من الجسم غير موائم كثيراً لهدف جنسي (الشعر، القدمان) أو موضوع جامد يمت بصلة وثيقة الى الموضوع المحبوب ، وفي المقام الأول جنسه (قطع من ثيابه ، لباسه الداخلي) . ومن الممكن مقارنة هذه البدائل ، في الحقيقة ، بالتميمة التي

يجسد فيها المتوحش إلهه .

ان الانتقال الى أشكال التميمية FETICHISME الموطدة ـ العزوف عن الهدف الجنسي السوي أو المنحرف ـ يتمثل في الحالات التي يُشترط فيها في الموضوع الجنسي ، وصولاً الى الهدف ، ان يشتمل على سمات تميمية (لون معين للشعر ، اولباس بعينه ، أوحتى بعض النقائص الجسمية) . وما من تنوع جنسي آخر يقترب من حد المرض يثير اهتمامنا كما يثيره هذا التنوع ، بالنظر الى غرابة الظاهرات التي يتمخض عنها . فهويفترض قدراً من الهبوط في النزوع الى الهدف الجنسي السوي (وهن وظيفي للجهاز التناسلي[١٧]) . أما الدنو من الجنسية السوية فيتمثل في المبالغة في تقييم الموضوع الجنسي التي هي ، فيما يبدو ، ضرورة نفسية والتي تطال كل ما هو مرتبط بالموضوع . لهذا نلتقي اطراداً درجة محددة من التميمية ، في الحب السوي ، وعلى الاخص في المرحلة الحبية التي لا يبدو فيها الهدف الجنسي قريب المنال أو قابلاً للاشباع .

ائتني بمنديل لامس صدرها
او برباط ساق حبيبتي !

فاوست

ويكون الانتقال الى الحالة المرضية بدءاً من اللحظة التي تتلبس فيها الحاجة الى التميمة شكلاً ثابتاً وتحل محل الهدف السوي ، أو كذلك حين تنفصل التميمة عن الشخص المعني وتغدو وحدها موضوع الجنسية . وتلك هي الشروط العامة التي يتم فيها الانتقال من تنوعات الغريزة الجنسية الى انحرافات مرضية .

يتجلى في اختيار التميمة ، كما لاحظ بينيه BINET اولاً وكما أيدته لاحقاً امثلة عدة، التأثير الدائم لانطباع جنسي يتلقاه المرء، في غالبية الحالات، في إبان طفولته . ويعيد ذلك الى أذهاننا الثبات الذي يضرب به المثل للحب الاول

(١٧) [هذا الوهن يناظره استعداد جبلّي محدد . وقد وجد التحليل النفسي أن التخويف الجنسي السابق لأوانه هو من جملة العلل العارضة التي تسهم في تحويل الفرد عن الهدف الجنسي السوي وتحمله على طلب بدائل له في مواضع اخرى] (أضيف سنة ١٩١٥) .

عن الأسوياء (On revient toujours à ses premières amours)(*) . ويظهر هذا الأصل الاول بجلاء في الحالات التي يكون فيها الموضوع الجنسي من طبيعة تميمية خالصة . ولنا عودة لاحقاً الى دور الانطباعات الجنسية التي يتلقاها المرء في طفولته[١٨] .

وفي حالات اخرى تتدخل عملية ربط فكري من طبيعة رمزية ولا شعورية في الغالب لتفرض حلول التميمة محل الموضوع . وليس من الميسور دوماً الاهتداء الى الطريق الذي سلكته عمليات الربط الفكرية هذه (فالقدم رمز جنسي قديم جداً ورد ذكره في الميتولوجيا ؛[١٩] كما ان الفرو يدين بدوره كتميمة ، على ما تشير الدلائل جميعاً ، الى ما بينه وبين شعر العانة من شبه) . ومع ذلك يلوح أن هذا الشكل من الرمزية ليس منقطع الصلة ، هو الآخر ، بالانطباعات الجنسية التي يتلقاها المرء في طفولته[٢٠] .

(*) بالفرنسية في النص . وهذا القول السائر له مقابله في الشعر العربي ، في بيت ابي تمام المشهور :

.... ما الحب إلا للحبيب الاول « م »

(١٨) [أفسح التحليل النفسي في المجال ، حينما تعمق في البحث ، امام توجيه نقد الى اطروحة بينيه . فكل المشاهدات التي جرت في هذا المضمار اكدت ان التميمة كانت قد تمكنت، منذ اللقاء الأول بها، من جذب الاهتمام الجنسي، دون ان تتيح لنا الظروف المصاحبة تفهم كيفية حدوث هذه الظاهرة . زد على ذلك ان جميع الانطباعات الجنسية « المبكرة » لا ترجع الى ابعد من السنة الخامسة او السادسة في عمر الفرد المعني ، ويبيح لنا التحليل النفسي ان نشك في إمكان حدوث تثبيتات مرضية جديدة في مثل هذا الزمن المتأخر، وتدلنا مشاهدة الوقائع انه يوجد، خلف الذكرى الأولى المتصلة بتكوين التميمة ، طور من النمو الجنسي تم تجاوزه ونسيانه، وهذا الطور تمثله التميمة باعتبارها « ذكرى ستارية » ، او باعتبارها بقية من بقاياه ورسابته ان جاز القول . اما التوجه نحو تميمية هذا الطور المرتبط بالسنوات الاولى من من الطفولة ، وكذلك اختيار التميمة ، ذاتها ، فإنما يتعينان بجبلّة الطفل] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

(١٩) [ضمن هذا السياق يغدو الحذاء أو الخف رمز الاعضاء التناسلية الانثوية] (اضيف سنة ١٩١٠) .

(٢٠) [توصل التحليل النفسي الى ردم فجوة في نظرية التميمية، اذ كشف النقاب عن الدور الذي يلعبه الحب المكبوت للروائح البرازية في اختيار التميمة . فالقدمان والشعر تطلق رائحة نفاذة . وهي ترفع الى منزلة التمائم متى ما صارت الاحاسيس الشمية مستكرهة =

ب ـ تثبيت الاهداف الجنسية التمهيدية

تكوين اهداف جنسية جديدة ـ إن جميع الظروف الخارجية والداخلية التي تباعد أو تعيق تحقيق الهدف الجنسي السوي (العنة ، غلاء الموضوع الجنسي ، الأخطار المنسوبة الى الفعل الجنسي) من شأنها بطبيعة الحال أن تعزز الميل الى الوقوف عند الأفعال التحضيرية والى تحويلها الى اهداف جديدة قابلة لأن تحل محل الأهداف السوية .

والتعمق في الدراسة يظهر أنه مهما بدت هذه الاهداف الجديدة غريبة ، فثمة ما يلمع اليها في العملية الجنسية السوية .

لمس الموضوع الجنسي والنظر اليه ـ إن الملامسة ضرورية الى حد ما (لدى الكائن الانساني على الأقل) لتحقيق الهدف الجنسي السوي . فالاحاسيس التي تنبع من لمس بشرة الموضوع الجنسي تبتعث ،كما هو معلوم ، لذة وتزيد من التهيج . ومن ثم فإن الوقوف لبعض الوقت عند الملامسات لا يمكن ان يُدرج في عداد الانحرافات ، بشرط استمرار الفعل الجنسي بطبيعة الحال .

والأمر بالمثل فيما يتعلق بالانطباعات البصرية ، التي يمكن ردها ، في التحليل الأخير ، الى الانطباعات اللمسية . فالانطباع البصري هو الذي يوقظ في غالب الاحيان الليبيدو ، وهذه الوسيلة هي التي يعتمدها الانتخاب الطبيعي ـ [ان جاز استخدام مفاهيم غائية] (اضيف سنة ١٩١٥) ـ

= فانتبذت . ففي تميمية القدم تغدو دوما الاقدام القذرة والنتنة الرائحة هي الموضوع الجنسي . والايثار التميمي للقدم قابل للتفسير ايضاً بنظريات الجنسية الطفلية (انظر فيما بعد) . فالقدم تنوب مناب القضيب الذي يعز على الطفل التسليم بفقدانه لدى المرأة] (اضيف سنة ١٩١٠) .

[وقد امكن ، في بعض حالات تميمية القدم ، التحقق من أن **غريزة حب النظر** ، التي كانت منصبة في الأصل على طلب رؤية الاعضاء التناسلية ، توقفت في منتصف الطريق بفعل ضروب الحظر والكبت ، وتثبتت على القدم او الحذاء الذي صار بحكم ذلك تميمة. ويتخذ عضو المرأة التناسلي في هذه الحال ، وطبقا لما يتصوره عنه الطفل ، شكل عضو الرجل] (اضيف سنة ١٩١٥) .

ليبني في الموضوع الجنسي صفات الجمال [illegible] التي توطدت مع الحضارة ، تبقي الفضول الجنسي متيقظاً وتحمل الفرد على التشوف اي تكملة الموضوع الجنسي بالكشف عن أجزائه المخفية . كذلك فإن الفضول قابل ، من ناحية اخرى ، للتحول باتجاه الفن (« التصعيد ») ، وذلك حين لا يتركز الاهتمام على الاجزاء التناسلية وحدها ، بل يطال ايضاً الجسم بكامله[٢١] .

ان غالبية الاسوياء يتوقفون ، بنوع ما ، عند الهدف الوسيط المتمثل بالنظر ذي الدلالة الجنسية ، بل ان هذا ما يتيح لهم ان يحولوا مقداراً من الليبيدو نحو أهداف فنية أسمى . وبالمقابل ، تغدو لذة النظر هذه انحرافاً : أ ـ إن اقتصرت على الأجزاء التناسلية وحدها ؛ ب ـ ان جهلت القرف (المتلصص على وظائف الإبراز) ؛ جـ ـ إن صرفت عن الفعل الجنسي السوي بدل ان تمهد السبيل له . وهذا ما يشاهد (ان جاز لي استخلاص نتيجة من عدد من الحالات المدروسة) لدى الاستعرائيين EXHIBITIONNISTES الذين يعرضون للآخرين أعضاءهم التناسلية حتى يعرض الآخرون لهم بدورهم هذه الاعضاء[٢٢] .

ان هذه الانحرافات ، التي يهدف الفرد فيها الى ان يَرى ويُرى ، تميط اللثام عن واقعة شائعة جداً ، لنا اليها لاحقاً عودة بمزيد من التفصيل في معرض كلامنا عن الانحراف التالي ، ونعني بها ظهور الهدف الجنسي في هذه الاحوال بمظهر مزدوج : **ايجابي وسلبي** .

والحياء (نظير القرف سابقاً) هو القوة التي تتصدى لهذه

---

(٢١) [يتراءى لي انه لا جدال في ان فكرة « الجمال » تضرب بجذورها في الإثارة الجنسية ، وأن الجميل لا يشير في الأصل إلا إلى ما هو مثير جنسياً : ولهذا صلة بواقع ان الاعضاء التناسلية ، التي يتولد عن مرآها اقوى التهيج الجنسي ، لا يمكن ان تعتبر بحد ذاتها جميلة] (أضيف سنة ١٩١٥) .

(٢٢) [يكشف التحليل النفسي في هذا الانحراف ، كما في معظم الانحرافات الاخرى ، عن كثرة لا متوقعة من الدوافع والدلالات . فالاستعرائية ، مثلا ، ترتبط ايضاً الى حد كبير بعقدة الخصاء . فهي بمثابة توكيد متجدد لسلامة العضو التناسلي الذكري ، ولشعور الرضى الذي يخامر الصبي الصغير حين يدير في رأسه فكرة خلو الجهاز التناسلي الانثوي من هذا العضو] (أضيف سنة ١٩٢٠) .

الانحرافات ؛ لكنه يقف في بعض الحالات مفلول السلاح .

السادية والمازوخية - ان الرغبة في إيلام الموضوع الجنسي - أو الميل المناقض - هي الشكل الأكثر شيوعاً وأهمية للانحرافات ؛ وقد أطلق عليها كرافت - ايبنغ اسم **السادية** او **المازوخية** تبعاً لكونها ايجابية او سلبية . ويؤثر مؤلفون آخرون مصطلحاً أكثر تحديداً وهو الالغولانيا(*) ALGO-LAGNIE، لإبرازه اللذة التي تتأتى عن الألم والقسوة ، على حين أن المصطلح الذي يستخدمه كرافت - ايبنغ يشير في المقام الأول الى اللذة التي تتأتى عن كل شكل من أشكال الإذلال والخضوع .

أما فيما يتعلق بالالغولانيا الايجابية ، أي السادية ، فمن الميسور ان نهتدي الى اصولها في الحياة السوية . فجنسية غالبية الرجال تشتمل على عناصر **عدوان** ، أي على ميل الى إخضاع الموضوع الجنسي ، وهو ميل قد يكون في مقدور البيولوجيا ان تفسره بالضرورة التي تحتم على الرجل ان يستخدم ، ان شاء التغلب على مقاومة الموضوع ، وسائل أخرى غير **الإغراء** . وعلى هذا الاساس ، ستكون السادية تضخماً في تطور المركّب العدواني في الغريزة الجنسية بعد ان يستقل بنفسه ويغتصب الدور الرئيسي .

[ليس لمصطلح السادية ، في اللغة المتداولة ، معنى محدد بدقة ؛ فهو يشمل الحالات التي تتميز بالحاجة الى ابداء العنف ، او حتى الى اتخاذ دور الشريك الايجابي ، وفي الوقت نفسه الحالات المرضية التي يكون فيها الاشباع مشروطاً بإذلال الموضوع الجنسي وإخضاعه لضروب شتى من سوء المعاملة . وهذه الحالات الاخيرة هي وحدها التي يمكن ان تعد من قبيل الانحراف ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

كذلك تشمل المازوخية جميع الدرجات المحتملة لموقف سلبي إزاء الحياة الجنسية وموضوعها ؛ وتبلغ المازوخية ذروتها حين يرتهن الاشباع حتماً بألم جسماني او نفساني يكون مصدره الموضوع الجنسي . وتبدو المازوخية ، باعتبارها انحرافاً ، أبعد شقة من السادية عن الهدف الجنسي السوي .

(*) مصطلح لم يكتب له البقاء ، وهو منحوت من كلمتين اغريقيتين : الغوس = الألم ، ولاغنوس = الافتتان.

« م »

وبوسعنا أن نتساءل عما اذا كانت ظاهرة أولية ، وعما اذا لم تكن نابعة على الدوام من تحول في السادية(٢٣) . وكثيراً ما نشاهد ان المازوخية لا تعدو ان تكون استمراراً للسادية التي ترتد على الشخص ذاته الذي يحل في هذه الحال محل موضوعه الجنسي . ويحملنا التحليل السريري لهذه الحالات الخطيرة من الانحراف المازوخي على الاعتقاد بأنها نتيجة مركّبة لسلسلة من العوامل التي تعزز وتثبت الموقف السلبي الاصلي (عقدة الخصاء ، الشعور بالذنب)] (عدل سنة ١٩١٥) .

والألم الذي يتم التغلب عليه في هذه الحالات شبيه بالقرف والحياء اللذين يتولجان، في الحالات التي تقدمت دراستها ، بمقاومة الليبيدو .

[تشغل السادية والمازوخية بين سائر الانحرافات مكانة خاصة . فالايجابية والسلبية اللتان تحددان سماتهما الاساسية التعارضية هما ايضاً من مقومات الحياة الجنسية بوجه عام] (اضيف سنة ١٩١٥) .

يدلنا تاريخ الحضارة ان القسوة والغريزة الجنسية تربط بينهما صلة وثيقة . بيد ان تفسير هذه العلاقة لم يتعد حتى يومنا هذا إبراز أهمية العنصر العدواني في الليبيدو . ولا يحجم بعض المؤلفين عن الافتراض بأن العنصر العدواني الملحوظ في الغريزة الجنسية ما هو إلا رسابة من الشهوة الى أكل لحم البشر ، مما يعدل القول بأن وسائل السيطرة التي تستخدم في إشباع الحاجة الكبرى الاخرى ، السابقة الى الظهور من زاوية تطور النوع ، تلعب هنا دوراً(٢٤) . وقد وجد ايضاً من يزعم ان كل ألم يتضمن في ذاته امكانية لذة .

(٢٣) [بالاستناد الى بعض الفروض بصدد بنية الجهاز النفسي والانماط الاساسية للغرائز العاملة فيه ، ادخلت لاحقاً تعديلات بعيدة المدى على تصوري للمازوخية . فقد وجدتني منقاداً الى التسليم بوجود مازوخية **أولية** - **شهوية** - يتطور بدءاً منها لاحقاً شكلان آخران : المازوخية **الانثوية** والمازوخية **المعنوية** . اما السادية التي لا تجد متصرفاً لها في الحياة ، فترتد على الشخص ذاته لتكوّن المازوخية **الثانوية** التي تنضاف الى المازوخية الاولية (انظر مقالي عن **المشكلة الاقتصادية للمازوخية** ، ١٩٢٤)] ، (اضيف سنة ١٩٢٤) .

(٢٤) [انظر ملاحظتي التي سيأتي ذكرها لاحقاً عن الاطوار القبتناسلية من النمو الجنسي ، **وفيها تأييد لوجهة النظر هذه**] (اضيف سنة ١٩١٥) .

وسنكتفي بالقول بأن تأويلاً كهذا لا يبعث على الرضى ، وأنه من المحتمل أن تتضافر عدة نوازع نفسية في تكوين الانحراف الناتج[٢٥] .

ان السمة المميزة الاولى لهذا الانحراف هي ان شكله الايجابي وشكله السلبي يلتقيان لدى الفرد الواحد . فمن يلذ له في العلاقات الجنسية ان يوقع الألم بشريكه،قادر ايضاً على الاستمتاع بما قد يساوره هو نفسه من ألم . والسادي هو على الدوام مازوخي ، وان كان ذلك لا يحول دون ان ترجح كفة الجانب الايجابي أو الجانب السلبي من الانحراف وان يسم بميسمه النشاط الجنسي الغالب[٢٦] .

وعلى هذا نرى ان بعض الميول والنوازع تؤلف على الدوام **أزواجاً من عناصر متضادة** ، وهو أمر يبدو لنا على جانب كبير من الاهمية من الناحية النظرية ، كما ستثبت ذلك حالات اخرى سنتولى تحليلها لاحقاً[٢٧] . ومن الجلي ، فضلاً عن ذلك ، ان طباق السادية والمازوخية لا يمكن تفسيره بعنصر العدوان وحده . بل على العكس ، فقد نميل الى إرجاع هذا الاتحاد بـين عناصر متضادة الى الجنسية الثنائية التي تجمع بين خصائص الذكورة والأنوثة [التي غالباً ما يستبدلها التحليل النفسي بطباق السلب ـ الايجاب] (عدل سنة ١٩٢٤) .

---

(٢٥) [إن الابحاث التي ذكرتها في الاخير قادتني الى ان أخص طباق السادية / المازوخية ، بالنظر الى أصله الغريزي ، بمكان على حدة وأن أفصله بالتالي عن سلسلة سائر « الانحرافات »] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

(٢٦) حسبي هنا دليلاً أن أسوق الفقرة التالية من كتاب هافلوك ايليس (**علم النفس الجنسي** ، ١٩٠٣) ، « ان جميع حالات السادية والمازوخية التي نعرفها ، وحتى كذلك الحالات التي عرضها كرافت ـ ايبنغ ، تجعلنا نكتشف على الدوام (كما اثبت ذلك من قبل كولان COLIN وسكوت SCOTT وفيري FÉRÉ) آثاراً من كلتا المجموعتين من الظاهرات لدى الفرد عينه » .

(٢٧) [انظر ما سنقوله فيما بعد عن « الازدواجية »] (أضيف سنة ١٩١٥) .

٣ ـ افكار عامة حول الانحرافات

التنوع والمرض ـ ان الاطباء ، الذين سبقوا الى دراسة الانحرافات من خلال بعض الحالات الثابتة ، وفي شروط خاصة ، وجدوا انفسهم منقادين بطبيعة الحال الى اعتبارها أعراضاً لمرض او لانحطاط ، مثلما كان الشأن مع الشذوذ . غير أن إثبات تهافت وجهة النظر هذه أسهل بعد في حالات الانحراف . فقد دلتنا التجربة ان معظم هذه الحيدانات ، أو أقلها خطورة على أي حال ، نادراً ما تغيب عن الحياة الجنسية للافراد الاسوياء الذين ينظرون اليها على انها مجرد خصوصيات تتعلق بحياتهم الشخصية . وقد يحدث ، حيثما تكن الظروف مؤاتية ، أن يحل الفرد السوي انحرافاً من الانحرافات محل الهدف الجنسي السوي ، أو ان يفسح له مكاناً الى جانبه . وفي مقدورنا القول إن ما من فرد سوي إلا ويوجد لديه عنصر يمكن وصفه بأنه انحرافي ، ينضاف الى الهدف الجنسي السوي ؛ والمفروض ان هذه الواقعة كافية وحدها لإقناعنا بعدم جواز تحميل لفظ الانحراف معنى تأنيبياً . وفي المضمار الجنسي تحديداً تواجهنا صعاب كأداء تبدو عصية على التذليل حالما نقيم حداً فاصلاً واضحاً بين التنوعات التي لا تخرج عن مجال الفيزيولوجيا السوية وبين اعراض المرض .

غير أن نوعية الهدف الجنسي الجديد تقتضي ، في بعض الانحرافات ، دراسة خاصة . فبعض الانحرافات تكون بالفعل بعيدة عن السواء الى حد لا نملك معه إلا ان نعلن انها « باتولوجية » . وعلى الأخص منها الانحرافات التي تتغلب فيها الغريزة الجنسية على بعض المقاومات (الحياء ، القرف ، الرعب ، الألم) وتأتي أفعالاً خارقة للمألوف (لعق البراز ، اغتصاب الجثث) . غير أننا نخطىء لو افترضنا أنه لا بد أن توجد ، حتى لدى هؤلاء الاشخاص ، ضروب خطيرة من نوع آخر من اللاسواء او أعراض أمراض عقلية . وليس لنا إلا أن نقرر مرة اخرى ان أفراداً أسوياء من كل النواحي الأخرى قد يدخلون في فئة المرض من الناحية الجنسية ، تحت سلطان أشد الدوافع الغريزية جموحاً . وبالمقابل فإن طابع اللاسواء الذي يطبع وجوه النشاط الاخرى يظهر دواماً فوق خلفية من الحيدان الجنسي .

وفي معظم الحالات لا نكتشف الطابع المرضي في مضمون الهدف الجنسي الجديد ، بل في صلاته بالجنسية السوية . فحين لا يكتفي الانحراف بأن يظهر **الى جانب** الحياة الجنسية السوية (من حيث الهدف والموضوع) ، وبقدرما تكون الظروف مؤاتية له وغير مؤاتية لها ، فينحّي الحياة الجنسية السوية ويحل محلها في الظروف جميعاً ، فإنما في هذه الحالة وحدها ، وحيث يكون هناك **انحصار وتثبيت** ، يسوغ لنا بصورة عامة ان نعتبر الانحراف عرضاً مرضياً .

العامل النفسي في الانحرافات - ربما كانت أشد الانحرافات إثارة للنفور هي التي تكشف على أجلى نحو عن مساهمة العامل النفسي في تحول الغريزة الجنسية . ومهما تكن النتيجة فظيعة ، نجد أنها تتضمن قدراً من النشاط النفسي يتمثل في ما أسبغ على الغريزة الجنسية من طابع مثالي . فكلية قدرة الحب لا تظهر للعيان بأقوى مما تظهر به في هذه الحيدانات . وأسمى ما في الجنسية وأحط ما فيها تجمع بينهما على الدوام اوثق العرى (**من السماء الى الجحيم عبر العالم**)(*) .

نتيجتان - رأينا في دراستنا الانحرافات أنه يتعين على الغريزة الجنسية أن تصارع بعض مقاومات من طبيعة نفسية ، وابرزها الحياء والقرف . وبوسعنا الافتراض أن دور هذه القوى إبقاء الغريزة الجنسية ضمن حدود ما يعتبر سوياً ؛ فإن نمت هذه القوى قبل ان تبلغ الغريزة الجنسية كامل قوتها ، فإنها في أرجح الظن هي التي ترسم لها مسار تطورها[٢٨] .

ثم لاحظنا بعد ذلك أن عدداً معيناً من الانحرافات التي درسناها حتى الآن لا يمكن أن تفهم إلا على ضوء التأثير المتضافر لعدة عوامل . فإن قبلت التحليل ، فمعنى ذلك أنها من طبيعة مركّبة . وهذا ما يبيح لنا الافتراض أن

(*) من مقدمة **فاوست** لغوته . « م » .

(٢٨) [ينبغي، من جهة أخرى، أن نعتبر القوى التي تحتجز النمو الجنسي، نظير القرف والحياء والاخلاق ، مترسبات تاريخية لضروب الكف الخارجية التي تعرضت لها الغريزة الجنسية عبر مسيرة التكوّن النفسي للبشرية . وفي مقدورنا أن نلاحظ بسهولة كيف يظهر أثر ضروب الكف هذه بعفوية في نمو الفرد بايعاز من التربية ومن مؤثرات خارجية اخرى] (اضيف سنة ١٩١٥) .

الغريزة الجنسية ليست بحدّ ذاتها معطى بسيطاً ، وإنما هي مكونة من مركّبات شتى تعود الى الانفصال في حالات الانحرافات . وتهدينا الملاحظة السريرية ايضاً الى **التحامات** جديدة لا تتحقق في المسار الاحادي النسق للحياة السوية[٢٩] .

٤ - الغريزة الجنسية لدى المعصوبين

التحليل النفسي - ليس في ميسورنا الوصول الى معرفة اوسع بالغريزة الجنسية لدى بعض الاشخاص الذين يقتربون - على الأقل - من السواء الا إذا درسناهم بالاستناد الى منهج معين . ذلك أنه ليس ثمة سوى وسيلة واحدة للخلوص الى نتائج مفيدة بصدد الغريزة الجنسية في الاعصبة النفسية (الهستيريا ، العصاب الوسواسي ، وما يسمى بالنوراستينيا [وبالتأكيد ايضاً الخبَل المبكر والبارانويا]) (عدل سنة ١٩١٥) ، وهي أن تخضع للفحوص التحليلية النفسية وفقاً للطريقة التي اتبعها للمرة الاولى بروير وانا نفسي في عام ١٨٩٣ ، والتي أسميناها يومئذ بالمعالجة « التطهيرية » .

سنقول بادىء ذي بدء ، مكررين بذلك ما بيَّناه في كتابات اخرى ، إن هذه الأعصبة النفسية ينبغي ان تعزى ، على حد ما تسنى لي ان أشاهد ، الى قوة الغرائز الجنسية . ولا اقصد بقولي هذا ان طاقة الغريزة الجنسية تدخل في عداد القوى التي تدعم التظاهرات المرضية فحسب ، بل أبغي التوكيد على أن هذه المساهمة هي مصدر الطاقة الاهم والوحيد الثابت للعصاب . ومن ثم فإن الحياة الجنسية للمرضى تتظاهر كلياً ، او غالباً ، او جزئياً ، في هذه الاعراض . وما الأعراض ، كما اوضحت ذلك في موضع آخر ، إلا النشاط الجنسي للمريض . والدليل على ما أذهب اليه تمدني به المشاهدات التحليلية النفسية

(٢٩) [أستبق هنا دراسة تكوين الانحرافات لأقول ان لدينا من الاسباب ما يحملنا على الافتراض (تسنى لنا ان نتحقق من ذلك في مثال التميمية) انه من المحتمل ان تكون بداية لنمو جنسي سوي قد سبقت تثبيت الانحرافات . وقد تسنى للتحليل النفسي ، حتى الآن، أن يبين من خلال الحالات الخاصة ان الانحراف هو بنوع ما وقفة في التطور باتجاه عقدة اوديب ، وان أقوى مركّبات الغريزة الجنسية تبعاً لجبلّة الفرد ينتزع الغلبة من جديد إثر كبت هذه العقدة] (أضيف سنة ١٩٢٠) .

التي كان موضوعها ، على هدى خمسة وعشرين عاماً ، مرضى الهستيريا وغيرهم من المعصوبين والتي عرضت نتائجها في كتابات اخرى أو سأنشرها في وقت لاحق[٣٠] .

في مستطاع التحليل النفسي ان يزيل أعراض الهستيريا ان كانت بديلاً ، اونقلاً ان جاز القول ، لسلسلة من سيرورات نفسية ورغبات ونوازع ما تسنى لها ، بنتيجة فعل معين (**الكبت**) ، ان تصل الى غايتها في صورة نشاط تستوعبه الحياة الشعورية . فهذه التشكيلات الذهنية ، المعتقلة في اللاشعور ، تنزع الى التعبير عن نفسها على نحو يطابق قوتها الوجدانية ، أي الى **التفريغ** . وهذا ما يحدث لدى المريض بالهستيريا في صورة **تحول** الى ظاهرات بدنية هي في واقعها أعراض الهستيريا . فإذا ما استطعنا ، بالاعتماد على تقنية محددة ، ان نرجع هذه الأعراض الى تمثلات مشحونة وجدانياً وقادرة على شق طريقها الى الشعور ، تأتّى لنا أن نفهم طبيعة هذه التشكيلات الذهنية ، التي بقيت لاشعورية الى ذلك الحين ، وأصلها .

نتائج التحليل النفسي - على هذا النحو تسنى لنا ان نقرر ، بناء على الخبرة ، ان هذه الاعراض هي بديل عن النوازع التي تستمد قوتها من الغريزة الجنسية ذاتها . وهذا التصور يتفق مع ما كنا نعرفه عن الاستعدادات الخِلقية للهستيريا التي نتخذها نموذجاً للاعصبة النفسية كافة ، وعن الأسباب التي أدت الى ظهورها . فالهستيري يعاني **كبتاً جنسياً** يتخطى الحد السوي ، واشتداداً في نمو القوى التي تعارض الغريزة الجنسية (الحياء ، القرف ، التصورات الاخلاقية) . وهو يرفض غريزياً الاهتمام بالمشكلة الجنسية عقلياً ، مما تكون نتيجته ، في الحالات النمطية ، جهلاً مطبقاً بها يمتد الى ما بعد البلوغ[٣١] .

(٣٠) [استكمالاً لما قلته ، لا طعناً فيه ، أعدل قولي كالآتي : ان الاعراض العصابية تقوم ، من ناحية اولى ، على مطالب الدوافع الغريزية الليبيدوية ، ومن الناحية الثانية على معارضة الأنا الذي يقابلها باستجابة ما] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

(٣١) **دراسات في الهستيريا** ، ١٨٩٥ . يقول ج . بروير ، في معرض كلامه عن المريضة التي طبق عليها للمرة الاولى الطريقة التطهيرية : « كانت الجنسية قد بقيت في حالة بدائية للغاية » .

هذه السمات الجوهرية للهستيريا يحجبها عن ناظر المراقب السطحي - وجود متواتر لعامل ثانٍ من العوامل المسبِّبة للمرض ، وأعني به النمو الزائد عن الحد للغريزة الجنسية . غير ان التحليل النفسي يكتشف في جميع الحالات الكبت ، فيتوصل على هذا النحو الى إماطة اللثام عما هو متناقض وملغز في الهستيريا باهتدائه الى ثنائية التضاد ما بين الغريزة الجنسية المشتطة والنفور الجنسي المسرف .

ان الفرد الذي عنده استعداد أولي للهستيريا يصير هستيرياً بالفعل حين تلح عليه مطالبه الجنسية إلحاحاً شديداً إثر البلوغ أو نتيجة لظروف خارجية . وبين ضغط الغريزة ومقاومة النفور الجنسي لها يظهر المرض باعتباره حلا ، مع أنه ليس في الواقع كذلك ، إذ هو لا يحل الصراع ، بل يسعى الى التملص منه عن طريق تحويل النوازع الجنسية الى اعراض مرضية . وما مثال الهستيري - لنفرضه رجلاً - الذي يمرض إثر انفعال عادي ، وبنتيجة صراع غير ناشىء عن الاهتمام الجنسي ، إلا استثناء ظاهري . ففي وسع المحلل النفسي ان يثبت ان العنصر الجنسي في الصراع هو الذي تسبب في المرض بحؤوله بين السيرورة النفسية وبين الوصول الى غايتها السوية .

العصاب والانحراف - لئن تكن التصورات التي أعرضها هنا قد لاقت أخصاماً ، فمرد ذلك ، الى حد كبير ، الى الخلط بين الغريزة الجنسية السوية وبين شكل الجنسية الذي وجدته في أصل الاعراض العصابية النفسية . غير ان تعاليم التحليل النفسي تمضي الى ابعد من ذلك بعد ؛ فهو يفيدنا ان الاعراض المرضية لا تتطور على حساب الغريزة الجنسية السوية (على الاقل ليس حصراً ولا بصورة غالبة) ، بل تمثل تحولاً في الغرائز الجنسية التي ينبغي ، فيما لو تهيأ لها التعبير عن نفسها في أفعال خيالية أو واقعية دون أن تستبعد من نطاق الشعور ، ان تسمى منحرفة (بالمعنى الواسع للكلمة) . اذن فالاعراض تتكون جزئياً على حساب الجنسية اللاسوية ؛ **والعصاب ، إن جاز القول ، هو الصورة السالبة للانحراف**[٣٢] .

(٣٢) ان تخيلات المنحرفين الشعورية الواضحة ، القابلة لأن تتحول في الظروف المواتية الى =

إن الغريزة الجنسية لدى المعصوبين تعرف جميع الحيدانات التي درسناها كتنوعات لحياة جنسية سوية وكتظاهرات لحياة جنسية مرضية .

أ ـ نلحظ لدى جميع المعصوبين (بلا استثناء) ، وعلى مستوى اللاشعور ، ميولاً الى الشذوذ ونوازع الى تثبيت الليبيدو على أشخاص من نفس جنسهم . ومن المحال علينا ، مالم نتعمق في الفحص ، ان نفهم ما سيكون لهذا العامل من اهمية في تكوين العصاب . وأقصى ما يتيسر لي ان أقوله هنا هو أنه يوجد على الدوام ميل لاشعوري الى الشذوذ ، وأن هذا الميل هو مفتاح العديد من حالات الهستيريا ، ولا سيما لدى الرجال(٣٣) .

ب ـ نستبين في اللاشعور ، في حالات الاعصبة النفسية ، ميلاً الى التعديات التشريحية يتجلى في صورة اعراض مرضية . وفي مقدمة هذه التعديات وأبرزها قوة ذاك الذي يعطي الأغشية المخاطية الشرجية والفموية دور منطقة تناسلية .

جـ ـ بين علل تكوين الأعراض في الأعصبة النفسية ينبغي ان نعزو دوراً هاماً الى الغرائز الجزئية التي تؤلف في العادة ازواجاً متضادة والتي عرفناها من قبل من حيث اقتدارها على تشكيل أهداف جديدة : نظير غريزة النظر والعرض لدى المتلصصين ولدى الاستعرائيين ، وغريزة القسوة في شكليها الايجابي والسلبي . ولا نستطيع ان نفهم ما للألم من دور في تكوين الاعراض المرضية مالم نأخذ في اعتبارنا غريزة القسوة ؛ فهذه الغريزة تعيّن بصورة شبه دائمة قسماً من السلوك الاجتماعي للمريض . وعنصر القسوة هذا في الليبيدو

= مسالك متسقة ، والمخاوف الهذائية لمرضى البارانويا الذين يسقطونها على أشخاص آخرين إسقاطاً عدائياً ، واستيهامات الهستيريين اللاشعورية التي يكتشفها التحليل النفسي خلف أعراضهم ـ إن جميع هذه التشكيلات تتطابق بمضمونها حتى في أدق التفاصيل .

(٣٣) كثيراً ما يقترن العصاب النفسي بشذوذ ظاهر . وفي هذه الحال يكون التيار الجنسي الغيري قد كبت بتمامه . وانصافاً لفلهم فليس ، من برلين ، أقر بأني أدين لملاحظة كاشفني بها بتنبهي الى وجود ميل الى الشذوذ دوماً وحتماً في حالات العصاب النفسي ، وهو أمر كان قد تسنى لي ان ألاحظه في عدد من الحالات الفردية [ان هذا الكشف ، الذي لم يقدر بعد حق قدره ، مقيض له ان يمارس تأثيراً حاسماً على جميع نظريات الجنسية المثلية] (أضيف سنة ١٩٢٠) .

هو ايضاً ما يعلل تحول الحب الى كره والمشاعر الودية الى عواطف عدائية ، وهذا ما نلتقيه في اعراض عدد كبير من الاعصبة ، ومنه تتألف أعراض البارانويا في جملتها تقريباً .

وتعظم أهمية هذه النتائج اذا اخذنا بعين الاعتبار بعض مظاهر المسألة :

أ ـ فحين توجد في اللاشعور غريزة جزئية مرتبطة بالغريزة الجزئية المضادة لها ، تكون هذه الأخيرة فعالة على الدوام هي الاخرى . فكل انحراف ايجابي يقترن هنا بانحراف سلبي ؛ فمن يكن في لاشعوره استعرائياً يكن في الوقت نفسه متلصصاً ؛ ومن يشك من عواقب كبت نوازع سادية فسيبدي استعداداً لأعراض مرضية مشتقة من نوازع مازوخية . والوجود المتواقت للأزواج المتضادة في الأعصبة وتوازيها مع الانحرافات « الموجبة » المقابلة أمر ملفت للنظر بكل تأكيد . بيد أن أحد النازعين المتعارضين لا بد ان ترجح كفته في اللوحة السريرية للمرض .

ب ـ في الحالات البارزة من الاعصبة النفسية يندر ان نجد غريزة وحيدة من هذه الغرائز المنحرفة ، بل نجد في العادة عدة غرائز ، وعلى وجه العموم آثاراً من الغرائز كافة . غير أن شدة كل غريزة على حدة مستقلة عن درجة تطور الغرائز الاخرى . ولهذا السبب ايضاً ، تقدم لنا دراسة الانحرافات الموجبة نسخة مقابلة دقيقة عن الاعصبة .

٥ ـ الغرائز الجزئية والمناطق الشهوية

ان لخصنا نتائج بحثنا بصدد الانحرافات الموجبة والسالبة ، بدا لنا واضحاً أن في مقدورنا ربطها بمجموعة من الغرائز الجزئية ، لكن هذه الغرائز ليست اولية بل هي قابلة للتفكيك بالتحليل . ونعني بـ « الغريزة » الممثل النفسي لمصدر متواصل للتنبيه من داخل الجسم نميز بينه وبين التنبيه الخارجي والمتقطع . تحتل الغريزة موقعها اذن عند الحد الفاصل بين المضمارين النفسي والجسمي . وأبسط التصورات وأقربها الى الذهن هو ذاك الذي ينص على ان الغرائز لا كيف لها بحد ذاتها ، بل توجد فقط بصفتها كماً قابلاً لأداء عمل معين في الحياة النفسية . وإن ما يميز الغرائز بعضها عن بعض

ويخلع عليها طابعاً نوعياً هو ارتباطها **بمصادرها** البدنية من جهة اولى ، **وبهدفها** من الجهة الثانية . ويكمن مصدر الغريزة في تنبه عضو من الأعضاء ، وهدفها القريب هو تسكين هذا التنبه العضوي[٣٤] .

وثمة تصور مؤقت آخر ، مستخلص من دراسة الغرائز ، ليس لنا ان نضرب عنه صفحاً ، ومؤداه أن التنبيهات البدنية على نوعين يختلفان بطبيعتهما الكيمياوية. وسنصف أحد هذين النوعين بأنه جنسي نوعياً، وسنسمي العضو الخاص به **المنطقة الشهوية** التي عنها تصدر الغريزة الجنسية الجزئية[٣٥] .

حين يتجه الميل الانحرافي نحو تجويف الفم وفتحة الشرج ، يكون دور المنطقة الشهوية واضحاً . فهذه المنطقة تسلك من الوجوه كافة في هذه الحال كما لو انها جزء من الجهاز الجنسي . وفي الهستيريا تصبح هذه الاجزاء من الجسم والاغشية المخاطية المناظرة لها محلاً لأحاسيس جديدة ولتغيرات في الاطراف العصبية - [بل يمكن القول : لسيرورات مشابهة لسيرورة الانتصاب] (اضيف سنة ١٩٢٠) - بحيث تؤدي وظائفها مثلما تؤديها الاعضاء التناسلية الفعلية حين تكون موضع إثارة سوية .

إن اهمية المناطق الشهوية كجهاز تناسلي ثانوي مغتصب لوظائف الجهاز التناسلي الاساسي تبرز بمزيد من الجلاء في الهستيريا اكثر مما في أي عصاب نفسي آخر ؛ غير ان هذا لا يعني ان دور هذه المناطق لا يعتد به في سائر الحالات المرضية ؛ وكل ما هنالك أنه يكون أعسر على التمييز لأن اعراض هذه الحالات (العصاب الوسواسي ، البارانويا) تتكون في مناطق من الجهاز النفسي بعيدة منتهى البعد عن المراكز المتحكمة بالوظائف الجسمانية . واكثر ما يسترعي الانتباه في الأعصبة الوسواسية دور المشاعر التي تؤدي الى خلق اهداف

(٣٤) [إن نظرية الغرائز هي القسم الأهم من المذهب التحليلي النفسي ، ولكنه ايضاً القسم الاقل اكتمالاً . وقد اضفت في اعمالي اللاحقة (**ما وراء مبدأ اللذة** ، ١٩٢٠ ؛ **الأنا والهذا** ، ١٩٢٣) اضافات جديدة الى نظرية الغرائز] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

(٣٥) [ليس من السهل ان نبرر هنا هذه الفرضية التي أوحت بها إلي دراسة فئة خاصة من الاعصبة . غير انه يبدو من المحال بالمقابل إصدار حكم نهائي بصدد الغرائز الجنسية دون اخذ هذه الفرضية بعين الاعتبار] (اضيف سنة ١٩١٥) .

جنسية جديدة ، والتي تبدو مستقلة عن النشاط الشهوي ، ومهما يكن من أمر ، فإن عضو البصر هو الذي يضطلع بدور المنطقة الشهوية في التلصصية ، بينما البشرة هي التي تؤدي هذا الدور في الحالات التي يتدخل فيها الألم والقسوة ؛ البشرة التي تتمايز في بعض أجزاء الجسم وتتحول الى أعضاء حواسية أو الى أغشية مخاطية ؛ وعلى هذا فهي المنطقة الشهوية تعريفاً[٣٦] .

٦ - تفسير الغلبة الظاهرية للجنسية الانحرافية في الاعصبة النفسية

إن ما تقدم قد يكون صوّر جنسية العصابيين النفسيين على غير صورتها الحقيقية . فربما أوحى بأن المعصوب اقرب ، في سلوكه الجنسي ، الى المنحرف وأبعد عن الكائن السوي بالقدر نفسه . وبالرغم من أنه ثمة مجال واسع للافتراض بأن الاستعداد الجبلي لهؤلاء المرضى ينطوي على ميل خاص الى الانحراف ، وإن بأوسع معاني الكلمة ، وهذا فضلاً عن الكبوتات الجنسية المسرفة وعن الرغبات الجنسية التي لا تقل إسرافاً ، فإن دراسة الحالات الاقل خطورة من غيرها تدل على أن هذا الفرض الاخير ليس ضرورياً على الدوام أو أنه لا بد لنا على الاقل ، كيما نتمكن من تقييم الآثار المرضية ، من ان نغض النظر عن عامل من العوامل . فالحالة المرضية لا تظهر لدى اغلب المعصوبين إلا بعد البلوغ ، حينما تشتد مطالب الحياة الجنسية السوية . وهذه الاخيرة تلقى المعارضة من الكبت في المقام الاول . وفي زمن لاحق يظهر المرض ، حينما يفشل الليبيدو في الوصول الى إشباع سوي . وفي الحالتين كلتيهما يتوقف الليبيدو في مساره ، وكأنه نهر سد مجراه الرئيسي فتدفق في مسالك جانبية ما كان سلكها من قبل . وعلى هذا المنوال يمكن للميل الى الانحراف (السلبي بطبيعة الحال) ، على قوته وبروزه لدى المعصوبين ، ان يتكون في مسالك جانبية ، أو ان يتلقى على اية حال تعزيزات جانبية . وهكذا تنضاف الى الكبت الجنسي ، باعتباره عاملاً داخلياً ، عوامل خارجية ، مثل الحد من الحرية ،

(٣٦) لا بد ان نذكر هنا فرضية مول MOLL القائلة ان الغريزة الجنسية تنقسم الى غريزة ملامسة والى غريزة انفشاش .

وتعذر الوصول الى هدف جنسي سوي ، والتنبه للاخطار التي تحف بالفعل الجنسي ، الخ ، وهي عوامل قد تسبب ايضاً انحرافاً لدى افراد ربما ظلوا لولاها أسوياء .

من الممكن ، من هذا المنظور ، ان تتفاوت مختلف حالات العصاب فيما بينها ؛ فأحياناً يكون المستوى الأولي للاستعداد هو العامل الغالب في العصاب ، واحياناً اخرى يكون المستوى الذي تم إدراكه بنتيجة تفرع جانبي لليبيدو . ومن الخطأ أن نتوهم وجود تعارض حيث لا وجود إلا لتآزر وتضافر . فالعصاب يصل الى ذروته حين تعمل الجبلّة والتاريخ الشخصي للفرد في اتجاه واحد . وان تكن الجبلّة متعينة بما فيه الكفاية لتدفع باتجاه العصاب ، فقد تستغني عن المدد الذي يمكن ان تمدها به الخبرات المعاشة ؛ وبالمقابل فإن صدمة بليغة من صدمات الحياة قد تدفع الى العصاب بفرد ذي جبلة متوسطة . وهذا يصدق ايضاً على الدور الاتيولوجي(*) لكل من العنصر الفطري والعنصر المكتسب في مجالات اخرى .

وان حبذنا مع ذلك أن نفترض ان وجود ميل خاص الى الانحراف هو واحدة من السمات المميزة للجبلة العصابية النفسية ، فلن يكون امامنا مناص من أن نواجه احتمال التمييز بين عدد من الجبلات من هذا النوع تبعاً لغلبة منطقة شهوية بعينها او غريزة جزئية بعينها . ولا يسعنا أن نجزم بوجود علاقة خاصة بين استعداد انحرافي معين وشكل مرضي معين . فهذه نقطة لم تدرس بعد ، شأنها شأن العديد من المسائل في هذا المجال .

٧ ـ ملاحظات اولى حول الطابع الطفلي للجنسية

ان عدد من تجوز تسميتهم بالمنحرفين قد زاد زيادة كبيرة ، نتيجة لما لاحظناه من وجود ميول انحرافية في تكوين اعراض الاعصبة النفسية . فليس كبيراً فقط تعداد الفئة التي يؤلفها المعصوبون ، بل تؤلف الاعصبة كذلك في

(*) الاتيولوجيا : علم الأسباب عموما ، ومبحث اسباب الامراض خصوصا . « م » .

تظاهراتها المتنوعة سلسلة متصلة الحلقات تمتد من المرض الى الصحة . ولقد كان موبيوس محقـاً إذ قال : اننا جميعاً هستيريون الى حد ما . وهكذا نرانا منقادين ، حيال الانتشار الواسع للانحرافات ، الى التسليم بأن الاستعداد للانحراف ليس ظاهرة نادرة واستثنائية ، وانما هو جزء لا يتجزأ من البنية السوية .

ان من المسائل التي كانت مثاراً للجدل معرفة ما اذا كان الانحراف من خِلقة الانسان ام ما اذا كان مرجعه الى خبرات معاشة ، كما يؤكد بينيه بالنسبة الى التميمية . ونحن الآن في حل من القول ان ثمة عاملاً خِلقياً في جميع الانحرافات ، ولكن هذا العامل موجود في الوقت نفسه **لدى جميع بني البشر** ، وهو يتفاوت في شدته بصفته استعداداً ويحتاج الى تأثيرات تأتيه من الخارج كيما يتظاهر . وبيت القصيد هنا الاستعدادات الفطرية ـ الملازمة للجبلّة ـ التي تغدو في طائفة من الحالات عوامل محدِّدة للجنسية (لدى المنحرفين) ؛ واذا لم تقمع في حالات اخرى قمعاً كافياً (الكبت) ، فقد تستحوذ بطريق ملتو ، وفي صورة اعراض مرضية ، على قدر كبير من الطاقة الجنسية ، بينما يتاح في الحالات المواتية التي تتوسط القطبين ، بفعل تقييد فعلي ونتيجة لتعديلات اخرى تطرأ على الاستعداد ، للحياة الجنسية السوية كما نسميها ، ان ترسي دعائمها .

وسنضيف ان الجبلة الافتراضية الحاوية لبذور الانحرافات قاطبة لا يمكن العثور عليها إلا لدى الطفل ، وهذا على الرغم من ان هذه الغرائز لا تتبدى لدى الطفل إلا بدرجات ضئيلة من الشدة . ولئن ساقنا ذلك الى الافتراض بأن المعصوبين بقوا في الطور الطفلي من الجنسية ، او ارتدوا اليه ، تحتم ان يتحول اهتمامنا نحو الحياة الجنسية للطفل . وعلى هذا ، سنحاول أن نكشف شبكة المؤثرات التي تتحكم بتطور الجنسية الطفلية حتى تنتهي الى الانحراف ، او الى العصاب ، أو اخيراً الى الحياة الجنسية السوية .

المبحث الثاني
الجنسية الطفلية

إهمال الطفل في دراسة الجنسية ـ من المسلم به بصفة عامة ان الغريزة الجنسية مفتقدة في الطفولة ولا تستيقظ إلا في طور البلوغ . وهذا خطأ تترتب عليه نتائج جسام ، لأنه هو المسؤول عن جهلنا بالشروط الاساسية للحياة الجنسية . اما لو تعمقنا بالمقابل في دراسة التظاهرات الجنسية عند الطفل ، فلربما اكتشفنا السمات الجوهرية للغريزة الجنسية ، ولربما فهمنا تطور هذه الغريزة ورأينا كيف تنهل من مصادر شتى .

والجدير بالملاحظة ان المؤلفين الذين عكفوا على دراسة السمات المميزة للراشد واستجاباته قد علقوا أهمية كبيرة على حقبة ما قبل التاريخ المتمثلة بالسوابق الوراثية ، بينما أهملوا حقبة ما قبل التاريخ الاخرى التي نلفاها في وجود كل فرد ، أقصد الطفولة . وهذا مع أن تأثير هذه الحقبة من العمر يفترض فيه ان يكون أيسر على الملاحظة من السوابق الوراثية وأولى منها بأن يحسب حسابه[1] . صحيح ان الادبيات المتعلقة بالموضوع تشتمل على بعض إشارات الى افعال صادرة عن الجنسية المبكرة لدى الاطفال الصغار ، من انتصاب واستمناء وحتى محاكاة للجماع ، لكنها تورد على الدوام كحالات استثنائية ، خارقة للمألوف ، وكأمثلة منكرة على الانحطاط المبكر . وما من مؤلف ، فيما أعلم ، تنبَّه الى ان الغريزة الجنسية تظهر ظهوراً منتظماً لدى الطفل ، ولسنا نعثر في المؤلفات التي تكاثرت في الآونة الاخيرة حول نمو الطفل

(١) [إنه يستحيل أصلاً تحديد مدى الدور الذي ينبغي عزوه الى السوابق الوراثية تحديداً دقيقاً قبل تقدير الدور الذي تضطلع به سوابق الطفل الشخصية] (اضيف سنة ١٩١٥) .

فصلاً يعالج النمو الجنسي الطفلي[2] .

(٢) لقد بدا لي هذا التوكيد فيما بعد مسرفاً في جراته بحيث لم ار بداً من التحقق من صحته بمراجعة جديدة لما كتب في الموضوع . وقد أيدت هذه المراجعة رأيي . فدراسة التظاهرات النفسية والبدنية للجنسية لدى الطفل لا تزال في طور ما قبل البداية . وقد أفصح مؤلف هو س . بل BELL(**دراسة تمهيدية في انفعال الحب بين الجنسين في المجلة الاميركية لعلم النفس** ، المجلد ١٣ ، ١٩٠٢) ، عن رأيه على النحو التالي : « لا أعرف عالماً واحداً عني بتحليل الانفعال كما يرى لدى المراهق » . ولم تسترع التظاهرات الجنسية البدنية في طور ما قبل البلوغ الانتباه إلا من خلال صلتها بتظاهرات الانحطاط، أو بصفتها هي نفسها تعبيراً عن الانحطاط . فجميع الدراسات التي قراتها عن سيكولوجية الطفل قد خلت من فصل عن حياته الحبية . ومن امثلة ذلك ، الاعمال المعروفة لبرير PREYER وبلدوين BALDWIN (**النمو العقلي عند الطفل والنوع** ، ١٨٩٥ ، وبيريز PEREZ (**الطفل بين الثالثة والسابعة** ، ١٨٩٤) ؛ وسترومبل STRUMPELL (**علم الامراض التربوي** ، ١٨٩٩) ، وك . غروس GROSS (**حياة الاطفال النفسية** ، ١٩٠٤) ؛ وث هيلر HELLER (**مقدمة في التربية الطبية** ، ١٩٠٤) ؛ وجيم سولي (**دراسات في الطفولة** ، ١٨٩٥) ، الخ ، الخ . ولتكوين فكرة عن الوضع الحالي للمسألة ، يمكن الرجوع الى مجلة **عيوب الاطفال** DIE KINDERFEHLER(بدءاً من عام ١٨٩٦) . على أنه من المسلم به أن وجود الحب في حياة الطفل ما عاد بحاجة الى إثبات . فبيريز (المصدر الآنف الذكر) يؤيد وجوده ؛ وك . غروس (**ألعاب البشر** ، ١٨٩٩) يعيد الى الاذهان ، على سبيل الحقيقة المعروفة ، ان « بعض الاطفال يعرفون في زمن مبكر الانفعالات الجنسية وتساورهم ازاء الجنس الآخر حاجة الى الملامسة » . وابكر ظهور للحب الجنسي (SEX - LOVE) سجله س . بل ضمن طائفة من مشاهداته ، حالة طفل في الثالثة من عمره . انظر ايضاً هافلوك ايليس (**علم النفس الجنسي** ، الملحق ٢) .

[ان الحكم الصادر أعلاه على ادبيات الجنسية الطفلية لا يمكن التمسك به بتمامه بعد صدور كتاب ستانلي هال HALL الجامع (**المراهقة ، سيكولوجيتها وصلاتها بالفيزيولوجيا والانتروبولوجيا والسوسيولوجيا والجنس والجريمة والدين والتربية** ، نيويورك ١٩٠٨) . وبالمقابل فإن أحدث كتب أ . مول (**الحياة الجنسية لدى الاطفال** ، برلين ١٩٠٩)لا يطعن في صحة حكمي.وعلى النقيض من ذلك،انظر مقالة بلولر:**الافعال الجنسية اللاسوية عند الاطفال في حولية الجمعية السويسرية للعناية بالصحة المدرسية** ، المجلد ٩ ، ١٩٠٨) .

[أوفي كتاب الدكتورة هـ . فون هوغ ـ هلموت HUG - HELLMUTH (**عن الحياة النفسية للاطفال** ، ١٩١٣) العامل الجنسي المهمل حتى اليوم حقه كاملاً] (اضيف سنة ١٩١٥) .

النساية الطفلية ـ ان علة هذا النقص الباعث على الدهشة تكمن جزئياً في التحفظ التقليديَ الذي يلتزم به المؤلفون بحكم تنشئتهم ، وجزئياً في ظاهرة نفسية لم تخضع حتى الآن للتفسير . أقصد بها **النساية** العجيبة التي تسقط حجاباً صفيقاً على السنوات الست او الثماني الاولى من الحياة بالنسبة الى اغلب الناس ، إن لم نقل جميعهم . وقد قبلنا حتى الآن بهذه النساية على انها واقعة طبيعية ، فلم نعجب لها ، مع أن ثمة داعياً للعجب . وبالفعل ، كنا في ابان تلك السنوات التي لم تخلف في ذاكرتنا سوى نتف من ذكريات مبهمة قد استجبنا ـ على ما يقوله لنا الآخرون ـ استجابة تضج بالحيوية لانطباعات العالم الخارجي وخبراته ، وأظهرنا فرحنا ، وتوجعنا ، مثلنا مثل سائر الناس ، وأبدينا حباً وغيرة وغير ذلك من الاهواء التي كانت تعتلج يومئذ في نفوسنا ، بل ينقل لنا الاشخاص الكبار شذرات مما تفوهنا به حفظوها هم في ذاكرتهم دليلاً على ذكائنا وحصافتنا . والحال أن ذلك كله يغيب عنا حين ندرك سن الرشد . فكيف لذاكرتنا ان تتخلف هذا التخلف الكبير عن سائر وظائفنا النفسية ؟ ومع ذلك فإن لدينا أسباباً وجيهة تحملنا على الاعتقاد بأن الذاكرة لم تكن في أي فترة أخرى أقدر على تسجيل الانطباعات واسترجاعها[3] .

ومن جهة اخرى يتعين علينا أن نفترض أو نستنتج من المشاهدات السيكولوجية التي أخضع لها الآخرون ان هذه الانطباعات التي غرقت في لجة النسيان هي عينها التي خلفت في نفسنا اعمق الاثار والتي كانت ذات دور حاسم في تطورنا اللاحق . اذن فلا مجال للكلام عن زوال فعلي لانطباعات الطفولة ، وإنما الامر أمر نساية مشابهة لتلك التي تمحو لدى المعصوبين ذكرى أحداث وخبرات طرأت في طور أسبق من العمر ، والتي تتميز برفض قبول بعض الانطباعات في الشعور (الكبت) . يبقى ان نعلم ما كنه القوى التي تحتم كبت الانطباعات الطفلية . ومن يجد جواباً عن هذا السؤال يكن قد فسر ايضاً النساية الهستيرية .

بيد أن الجدير بالملاحظة ان النساية الطفلية تفسح في المجال لإجراء

(٣) حاولت أن أحلّ احدى المعضلات المتعلقة بأبعد ذكريات الطفولة في مقال لي بعنوان **الذكريات الستارية** نشر عام ١٨٩٩ (انظر **علم نفس امراض الحياة اليومية** ، الفصل الرابع) .

مقارنة جديدة بين الحالة العقلية لكل من الطفل والعصابي . فقد تسنى لنا من قبل ان نلاحظ تشابهاً بينهما حين قررنا أن جنسية العصابي حافظت على سمات طفلية ، أو ارتدت اليها على أية حال . أفلا يقودنا هذا الى الافتراض بأن النساية الطفلية نفسها ليست منقطعة الصلة بجنسية الطفل ؟

مهما يكن من أمر ، فإن الرغبة في ربط النساية الطفلية بالنساية الهستيرية ليست محض لعب بالألفاظ . فالنساية الهستيرية ، التي لها دورها في الكبت ، لا تفسير لها إلا بوجود ذخيرة من الآثار الذاكرية لدى الفرد لا سيطرة للشعور عليها ، فتصير ، من خلال عملية ربط معينة ، مركزاً لجذب العناصر التي تستبعدها القوى المنطلقة من الشعور وتكبتها[4] . وبوسعنا القول إنه لولا النساية الطفلية لما كانت النساية الهستيرية .

ان النساية الطفلية ، التي تخلق لكل واحد منا في طفولته نوعاً من **ماقبل التاريخ** وتحجب عنا بواكير الحياة الجنسية ، هي المسؤولة عن امتناعنا عن أخذ اهمية الطور الطفلي في نمو الحياة الجنسية بوجه عام بعين الاعتبار . ولا يمكن لمراقب واحد ان يسد هذه الثغرة . وقد كنت نوهت ، منذ عام ١٨٩٦ ، بدور السنوات الاولى من الحياة في انتاج بعض الظاهرات الاساسية المتصلة بالحياة الجنسية ، وما ونيت منذ ذلك اليوم ألفت الانتباه الى هذه الواقعة .

١ ـ مرحلة الكمون الجنسي في الطفولة ووقفاتها

حينما نتنبه لكثرة تواتر المشاعر الجنسية التي يقال انها لاسوية واستثنائية لدى الطفل ، وحينما نكتشف كذلك ذكريات من الطفولة بقيت لاشعورية حتى الآن ، يمكن لنا ان نحدد الموقف الجنسي للطفل على النحو التالي[5] :

(٤) [لا يمكن لنا فهم اوالية الكبت ما دمنا لا نأخذ في اعتبارنا سوى عملية واحدة من هاتين العمليتين المتآزرتين . ومن الممكن تشبيه هذه الحال بحال السائح الذي يرفع الى قمة هرم الجيزة : فهو يُدفع من ناحية ويجذب من ناحية اخرى] (اضيف سنة ١٩١٥) .

(٥) ان مصدر المعلومات والمشاهدات هذا قابل للاستخدام ما دامت سنوات طفولة عصابيي =

يبدو بحكم المؤكد ان الطفل يحمل معه من ولادته بذور النوازع الجنسية التي تنمو لحين من الزمن ، ثم لا تلبث ان تُقمع تدريجياً ،وهذا القمع تقطعه بدوره دفعات منتظمة من النمو او توقفه بعض خصائص الفرد . ولسنا نستطيع ان نقطع برأي على وجه اليقين بصدد انتظام تأرجحات هذا النمو ودوريتها ، لكن يبدو محققاً ان حياة الطفل الجنسية تتظاهر في حوالي السنة الثالثة او الرابعة في صورة يمكن معها إخضاعها للملاحظة(٦) .

= الغد لا تختلف ـ على حد ما هو مباح لنا الافتراض ـ عن سنوات طفولة الافراد الذين بقوا أسوياء من حيث طبيعة الانطباعات والخبرات المعاشة، وانما تختلف فقط من حيث شدة هذه الانطباعات والخبرات ووضوحها .

(٦) من الممكن ان نجد موازياً تشريحياً لهذه النظرية عن الجنسية الطفلية في الملاحظة التي كان باير BAYER سباقاً الى إبدائها (**الملفات الالمانية للطب السريري** ، المجلد ٧٣) والتي مؤادها ان العضو الجنسي الباطني (الرحم) يكون في العادة اكبر حجماً عند الوليد منه عند الاطفال المتقدمين في العمر . غير انه لم يقم دليل ، كما يزعم هلبان ؛ على ان انغماداً مماثلاً يصيب ايضاً سائر اجزاء الجهاز التناسلي عقب الولادة . ويرى هلبان (**مجلة فن القبالة والطب النسائي** ، المجلد ٥٣ ، ١٩٠٤) ان هذه السيرورة النكوصية تنتهي بعد بضعة اسابيع من بداية الحياة خارج الرحم .

[أما المؤلفون الذين يعتبرون الجزء البيني من الغدد التناسلية هو العضو المعين للجنس فقد قادتهم البحوث التشريحية بدورهم الى الكلام عن حياة الطفل الجنسية وفترة كمونها . وأقتطف هنا من كتاب ليبشوتز الذي تقدمت الاشارة اليه (انظر الهامش رقم ١٢ من المبحث الاول) عن **غدة البلوغ** الفقرة التالية : « اننا نكون اقرب الى الحقيقة ان قلنا إن تطور السمات الجنسية ، الذي يتم في وقت البلوغ ، هو بمثابة النهاية لسيرورة تزايدت سرعتها في ذلك الحين ، ولكن بدايتها ترجع في رأينا الى ما قبل ذلك بكثير ، الى عهد الحياة الجنينية ... وإن **ما سمي حتى الآن بكل بساطة بالبلوغ ما هو في الارجح إلاطور ثان هام للبلوغ يعلن عن نفسه في اواسط العقد الثاني من عمر الانسان**..اما الطفولة التي تمتد من الميلاد الى مبتدأ هذا الطور الثاني المهم فمن الممكن تسميتها **بالطور الوسيط من البلوغ** » . وقد نبه فيرنزي في تعليق نقدي له على كتاب ليبشوتز (**المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، المجلد ٦ ، ١٩٢٠) الى التطابق بين المكتشفات التشريحية والمشاهدة السيكولوجية ، وهو تطابق لا يخل به الا واقع أن **الذروة الاولى** لنمو الاعضاء الجنسية تقع في مبتدأ المرحلة الجنينية ، على حين ان التفتح الاول لحياة الطفل الجنسية يحدث ما بين السنة الثالثة والرابعة . وبديهي أنه من غير المفروض ان يتطابق تمام التطابق زمن التكون التشريحي وزمن النمو النفسي . وقد أجريت البحوث بهذه الخصوص على الغدد التناسلية عند =

ضروب الكف الجنسي ـ في طور الكمون ، الكامل او الجزئي ، تتكون القوى النفسية التي تقف فيما بعد عقبة في وجه الغرائز الجنسية ، وتحد من مجراها وتضيِّقه كما تفعل السدود (القرف ، الحياء ، الصبوات الاخلاقية والجمالية) . ويساور المرء شعور ، حيال الاطفال الذين رأوا النور في مجتمع متحضر ، ان هذه السدود هي من صنع التربية ؛ ولا مراء في ان للتربية نصيباً فيها . ومع ذلك فإن هذا التطور المشروط بالعضوية والمثبَّت بالوراثة قد يحدث احياناً بلا تدخل من جانب التربية على الاطلاق . وعلى هذه الاخيرة ، كيلا تتخطى حدودها ، أن تكتفي بتتبع خطوط ما هو مسبق التشكيل عضوياً ، وبتعميقه وتطهيره .

التشكيل الارتجاعي والتصعيد ـ ما الكيفية التي تتكون بها إذن هذه الابنية التي تقدر على حجز النوازع الجنسية ، والتي تقرر الاتجاه الذي سيسلكه نمو الفرد ؟ انها تتكون في ارجح الظن على حساب نوازع الطفل الجنسية التي تستمر في الوجود في مرحلة الكمون، وإن حُولت ، كلياً أو جزئياً ، عن الاستعمال الذي وجدت برسمه ووُجهت نحو غايات اخرى . ويتفق علماء الاجتماع فيما يبدو على القول ان السيرورة التي تحول القوى الجنسية عن هدفها وتستخدمها لأهداف جديدة ، وهي السيرورة التي يطلق عليها اسم **التصعيد**(*) ، تشكل واحداً من أهم العوامل في بناء المنجزات الحضارية . وسنضيف بملء طوعنا أن السيرورة عينها تلعب دوراً في التطور الفردي وأنها ترجع بأصولها الى مرحلة الكمون الجنسي عند الطفل(٧) .

وبوسعنا ان نصوغ فرضاً بصدد طبيعة اوالية التصعيد . فالجنسية من جهة اولى تبقى ، في إبان سنوات الطفولة تلك ، بلا استخدام ـ على اعتبار أن وظائف الإنسال لا تكون قد ظهرت بعد ـ ؛ وهذا ما يكوِّن بالفعل الطابع

= الانسان . وبما اننا لا نستطيع ، من جهة اخرى ، ان نلحظ لدى الحيوانات فترة كمون بالمعنى السيكولوجي ، فمن الاهمية بمكان ان نعلم إن كانت المشاهدات التشريحية ، التي اليها يستند المؤلفون المذكورون للتوكيد على وجود ذروتين في النمو الجنسي ، قابلة لأن تجرى ايضاً على انواع عليا اخرى من العالم الحيواني] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

(*) SUBLIMATION : ومن الممكن ترجمتها ايضاً بـ « الإسماء » . « م »

(٧) إني اقتبس تعبير « مرحلة الكمون الجنسي» من ف . فليس .

الاساسي لمرحلة الكمون ؛ والجنسية من جهة ثانية تكون هي نفسها منحرفة ، أي صادرة عن مناطق شهوية ومحمولة بغرائز لا يمكن ان ينجم عنها ، بدالّة التطور اللاحق للفرد ، سوى احاسيس تنغيص . ومن ثم فإن هذه التنبيهات الجنسية المستثارة ستستنجد بقوى مضادة ، أو **باستجابات** ارتجاعية تبنى ، كيما تتمكن من قمع تلك الاحاسيس المستكرهة بفعالية ، السدود النفسية التي تقدم ذكرها (القرف ، الحياء ، الاخلاق[8]) .

وقفات مرحلة الكمون ـ من غير ان نخدع انفسنا بصدد الطبيعة الافتراضية لتصوراتنا بصدد مرحلة الكمون ، سنقول إن تحول الجنسية الطفلية ، كما وصفناه أعلاه ، يمثل واحداً من اهداف التربية ، مثلاً اعلى لا يدركه الفرد إلا منقوصاً وكثيراً ما يحيد عنه حيداناً بعيد المدى . وقد يحدث احياناً ان تبرز للعيان على نحو مباغت شذرة لم يطلها التصعيد من الحياة الجنسية ، أو قد يظل ضرب من النشاط الجنسي مستمراً على امتداد فترة الكمون ، وصولاً الى تفتح الغريزة الجنسية الكامل في زمن البلوغ .

وبقدر ما يولي المربون الجنسية الطفلية قدراً ولو ضئيلاً من اهتمامهم ، نراهم يسلكون مسلك من يشاطرنا آراءنا بصدد تشكيل القوى الاخلاقية الدفاعية على حساب الجنسية ، ومسلك من يعلم ايضاً ان النشاط الجنسي يجعل الطفل غير قابل للتربية . وبالفعل انهم ينددون بجميع التظاهرات الجنسية لدى الطفل باعتبارها من « الرذائل » دون أن يكون في مكنتهم أصلاً مواجهتها بصورة جدية . ولنا نحن من الأسباب ما يحملنا على توجيه عنايتنا الى هذه الظاهرة التي تخشاها التربية وتتخوف منها ، لأنها قمينة بأن تزيدنا علماً بصدد الشكل الاصلي للغريزة الجنسية .

٢ ـ تظاهرات الجنسية لدى الطفل

المص ـ لأسباب سوف تتوضح فيما بعد ، سنتخذ المص نموذجاً

(٨) [في الحالة التي نناقشها هنا يتم تصعيد الغرائز الجنسية عن طريق التشكيل الارتجاعي. غير انه مباح لنا بصورة عامة التمييز بين التصعيد والتشكيل الارتجاعي باعتبارهما سيرورتين مختلفتين . ومن الممكن ان يحدث التصعيد ايضاً بكيفيات اخرى اكثر بساطة] (اضيف سنة ١٩١٥) .

للتظاهرات الجنسية في الطفولة ؛ وقد خصه طبيب الاطفال المجري ليندنر LINDNER بدراسة ممتازة[9] .

ان المص والتمصص ، اللذين يظهران لدى الرضيع ، وقد يستمران الى سن الرشد ، بل مدى الحياة أحياناً ، قوامهما حركة ايقاعية تكررها الشفاه وليس هدفها تناول الغذاء . وإن جزءاً من الشفة نفسها ، واللسان ، واية منطقة اخرى من الجلد في متناول اليد ، وفي الغالب إبهام القدم ، هي التي تغدو موضوعاً للمص . وقد تظهر في الوقت نفسه غريزة اخرى ، هي غريزة القبض والشد بحركة ايقاعية على شحمة الأذن ، كما قد يبحث الطفل لدى شخص آخر عن جزء من جسمه يتأتى له الإمساك به (وفي الغالب ايضاً شحمة الاذن) . وتستغرق لذة المص كل انتباه الطفل ، ثم تنيمه ، أو قد تفضي به الى استجابات حركية هي بمثابة ضرب من الرعشة الجنسية[10] . وكثيراً ما يترافق المص ايضاً بملامسات مكررة للصدر وللاجزاء التناسلية الخارجية . وعلى هذا النحو ينتقل الاطفال في كثير من الاحيان من المص الى الاستمناء .

[لقد أقر ليندنر نفسه بالطبيعة الجنسية لهذا النشاط . وكثيراً ما تدرج الامهات التمصص في عداد سائر « رذائل » الطفل الجنسية . وقد عارض بعض أطباء الاطفال وأطباء الاعصاب بشدة هذا التصور ، وبنوا معارضتهم هذه جزئياً على الخلط بين « الجنسي » و« التناسلي » . ومعارضتهم هذه تطرح سؤالاً صعباً ولا سبيل الى التملص منه وهو : ما المعيار الذي يمكن بالاستناد اليه تعرف التظاهرات الجنسية لدى الطفل ؟ ويلوح لي ان تسلسل الظاهرات ، الذي يميط عنه اللثام التحليل النفسي ، يبيح لنا أن نقول إن التمصص فعل جنسي ، وان ندرس فيه السمات الاساسية للجنسية الطفلية[11]] (اضيف سنة ١٩١٥) .

(٩) في **حولية طب الاطفال** ، المجلد ١٤ ، ١٨٧٩ .

(١٠) لدينا هنا من الآن الدليل على واقعة لن تلبث ان تثبت صحتها في حياة الراشد ، وأعني بها كون الاشباع الجنسي خير دواء ضد الأرق . وأغلب حالات الأرق العصبي مردها الى عدم الاشباع الجنسي . ومعلوم ان بعض المرضعات اللاتي لا يردعهن وازع من ضمير يهدئن وينمن الاطفال الذين يوكل امرهم إليهن بتدليك أعضائهم التناسلية .

(١١) نشر الدكتور غالانت GALANT في ١٩١٩ في **مجلة طب الاعصاب** ، المجلد ٢٠ ، تحت =

الايروسية الذاتية ـ ان المثال الذي ضربناه يستأهل منا اهتماماً خاصاً. فأكثر ما يلفت النظر في طابع هذا النشاط الجنسي ، على ما يبدو لنا ، هو أنه غير موجه نحو شخص آخر . فالطفل يستمد لذته من جسمه بالذات ؛ وموقفه من ثم **ايروسي ذاتي** على حد تعبير هافلوك ايليس[١٢] .

ومن الجلي ايضاً ان الطفل عندما يمص فإنما ينشد في هذا الفعل لذة سبق له ان خبرها ، وهي تعود الآن الى ذاكرته . والطفل يحظى بطلبته بمصه جزءاً من البشرة أو من الغشاء المخاطي مصاً ايقاعياً . ومن اليسير علينا أن نتبين ما طبيعة الظروف التي خبر فيها الطفل لأول مرة هذه اللذة التي يسعى الآن الى تجديدها . فلا بد ان يكون النشاط الأولي والاساسي بالنسبة الى حياة الطفل ، أعني مص ثدي الأم او ما ناب منابه ، هو الذي علمه ذلك . وسنقول إن شفتي الطفل اضطلعتا بدور **المنطقة الشهوية** ، وإن الإثارة الناجمة عن تدفق اللبن الدافىء هي التي استتبعت التلذذ . وفي أول الأمر ، ارتبط إشباع المنطقة الشهوية ارتباطاً وثيقا بتسكين الجوع . [فالنشاط الجنسي يرتكز بادىء ذي بدء الى وظيفة تعمل من أجل بقاء الحياة ولا يستقل عنها إلا في فيما بعد] (اضيف سنة ١٩١٥) . وعندما نرى الطفل يترك الثدي وقد شبع ، ويرتخي بين ذراعي أمه ، ويستسلم للرقاد ، وقد احمرت وجنتاه وطافت على وجهه ابتسامة غبطة ، لا نملك إلا ان نقول إن هذه الصورة تبقى نموذج التعبير عن

= عنوان **المصاصة** ، اعترافاً لفتاة صبية لم تقلع عن مزاولة هذا الشكل من النشاط الجنسي ، وهي تصف اللذة التي توفرها لها المصاصة بأنها معادلة تماماً للذة الجنسية ، وعلى الاخص لتلك التي تُجتنى من قبلة الحبيب :

« لا تعطي القبلات كلها اللذة التي تعطيها المصاصة . كلا ، ثم كلا ! ومن المحال ان أصف إحساس النشوة الذي يسري في جسمي كله حينما أمص شيئا ما ، فأنا لا أعود من هذا العالم ، وتغمرني سعادة عارمة ، وأتجرد من كل رغبة . انه لشعور رائع . لا أعود أتوق الى غير السكينة ، السكينة التي لا داعي بعد الآن لأن يعكرها شيء . إنه شعور يند جماله عن الوصف : لا إحساس على الاطلاق بالألم ، أو بالاكتئاب ، ولكأني انتقلت الى عالم آخر » (اضيف سنة ١٩٢٠) .

(١٢) [الحق ان ايليس يستخدم عبارة « الايروسي الذاتي » استخداما مختلفاً بعض الشيء ، بمعنى ان التهيج لا يستثار من الخارج ، بل يتعين من الداخل . أما في نظر التحليل النفسي فليس الأصل هو الشيء الجوهري ، وانما الصلة بالموضوع] (عدل سنة ١٩٢٠)

الاشباع الجنسي الذي سيخبره فيما بعد . غير أن الحاجة الى تكرار الإشباع الجنسي سرعان ما تنفصل عن الحاجة الى الغذاء ، وهذا الانفصال يحتمه الدخول في مرحلة ظهور الاسنان حيث يتم تناول الطعام لا رضاعة فحسب ، بل مضغاً ايضاً . وعندئذ لا يعود الطفل الى استخدام شيء غريب عن جسمه ليكون موضوع المص ، بل يؤثر جزءاً من بشرته بالذات لأنه أسهل منالاً ولأنه يتيح له ان يستقل عن العالم الخارجي الذي لا يسعه ان يتحكم به ؛ وكذلك لأنه يختلق لنفسه على هذا النحو منطقة شهوية ثانية ، وان تكن أدنى اهمية من الاولى . وعدم كفاية هذه المنطقة الثانية ستكون واحداً من الاسباب التي تحمل الطفل فيما بعد على طلب جزء له قيمة معادلة : أي شفتي شخص آخر . ولكأن لسان حاله يقول : « أسفي اني لا أستطيع تقبيل نفسي » .

وليس الاطفال كلهم يتمصصون . ولنا ان نفترض إن التمصص وقف على الاطفال الذين تكون الحساسية الشهوية للمنطقة الشفوية متطورة لديهم تطوراً قوياً بالخلقة . وان استمرت هذه الحساسية ، تولع الطفل فيما بعد بالقبل ، ونشد القبل الانحرافية ، ومتى شب عن الطوق ورقى الى مدارك الرجال ظهر لديه ميل الى الشرب والتدخين . أما إذا أصابه كبت ، فسيتقزز من الطعام وسيغدو عرضة لقيء هستيري . وبنتيجة الاستعمال المشترك للمنطقة الفموية ـ الشفوية ، سيتركز الكبت على الشهية . وكثيرات من النساء اللائي عالجتهن ، ممن يشكين من اضطرابات الشهية والكرة الهستيرية(*) والاحساس بتقلص الحلق والقيء ، كن مارسن المص بشغف في عهد طفولتهن .

لقد عرَّفنا المص الى السمات الاساسية الثلاث للجنسية الطفلية . [هذه الجنسية تنمو **بالاعتماد** على وظيفة فيزيولوجية أساسية للحياة] (اضيف سنة ١٩١٥) ، **فهي لا تعرف بعد موضوعاً جنسياً** ، وهي **ذاتية الايروسية** ، ومتعينة بنشاط **منطقة شهوية** . ولنقل ، استباقاً ، إن هذه السمات تتكرر في معظم التظاهرات الايروسية عند الطفل .

(*) الكرة الهستيرية : تعبير يشير الى ما يحس به الهستيري من وجود مؤلم لما يشبه الكرة في حلقومه او صدره أو امعائه . « م » .

٣ ـ الهدف الجنسي للجنسية الطفلية

سمات المناطق الشهوية ـ يمكن لمثال المص ان يضيف الى جعبتنا معلومات كثيرة عن مقومات المنطقة الشهوية. فالمنطقة الشهوية موضع من البشرة أو من الغشاء المخاطي يتولد عنه، حينما يُنبه بكيفية خاصة، إحساس باللذة من نوع خاص. وارجح الظن ان التنبيه المولِّد للذة يرتبط بشروط معينة لا معرفة لنا بها. وفي عداد هذه الشروط، يلعب الطابع الايقاعي في اغلب التقدير دوراً؛ ولا يخفى هنا قدر من التشابه مع الدغدغة. والأقل يقيناً من ذلك أن يكون طابع اللذة التي يولِّدها هذا التنبيه « خصوصياً »، وان يكمن في هذا الخصوصية مميز الجنسية. وعلم النفس لا يزال يتلمس طريقه في الظلام تلمساً بصدد مسألة اللذة والألم، ومن ثم تقضي الحكمة بالأخذ بأشد الفروض حذراً. وربما اهتدينا فيما بعد الى أسباب تبيح لنا التوكيد على الطابع الخصوصي للاحساس اللذي.

ان الخاصية الشهوية تبدو وثيقة الارتباط بمواضع معينة من الجسم. فثمة مناطق شهوية مصطفاة، كما دلنا على ذلك مثال المص؛ لكن هذا المثال عينه يفيدنا ايضاً أن أية منطقة من البشرة أو من الغشاء المخاطي يمكن ان تضطلع بدور المنطقة الشهوية، ومن ثم لا بد أن تكون متصفة ببعض الصفات التي تهيئها لهذا الاستعمال. وعلى هذا، فإن كيفية التنبيه، لا طبيعة المنطقة المنبَّهة من الجسم، هي ذات الشأن الاكبر في توليد الاحساس اللذي. فالطفل الذي يمص يبحث ويختار، توخياً للذة، موضعاً من جسمه لا يلبث ان يغدو هو الموضع الاثير بحكم التعود. فإن شاءت له المصادفة ان يقع على منطقة موائمة جداً (حلمة الثدي، الاجزاء التناسلية)، حافظت هذه المنطقة على أولويتها. واننا لنلتقي في تكوين أعراض الهستيريا ضروباً مماثلة من هذا النقل. ففي هذه الحالة العصابية يصيب الكبت المناطق التناسلية بوجه خاص، فتحول قابليتها للتهيج الى مناطق شهوية اخرى، مهملة في العادة بعض الإهمال في الحياة الراشدة، فتصير تسلك مذاك فصاعداً مسلك الاعضاء التناسلية. غير أن أي جزء من الجسم يمكن، كما الحال في المص، ان يكتسب قابلة التهيج المميزة للجهاز التناسلي، فيرقى الى مصاف المنطقة

الشهوية. والمناطق الشهوية والمناطق الهستيرية تتسم بسمات واحدة[١٣].

هدف الجنسية الطفلية ـ إن الهدف الجنسي للغريزة لدى الطفل هو الحصول على الإشباع عن طريق الإثارة المناسبة لمنطقة شهوية بعينها. ولا بد أن يكون الطفل قد خبر هذا الاشباع في زمن سابق كيما يرغب في تكراره، ولا مفر لنا من التسليم بأن الطبيعة عملت على ألا يترك أمر خبرة هذا الاشباع للمصادفة[١٤]. وقد عرفنا، فيما يتصل بالمنطقة الفموية ـ الشفوية، الوسائل التي تتوسلها الطبيعة للوصول الى غاياتها: فهذا الموضع من الجسم يفيد ايضاً في تناول الاغذية. وسنتعرف الى كيفيات مماثلة اخرى من حيث هي مصادر للنشاط الجنسي. وحالة الحاجة، التي تقتضي تكرار الاشباع، تكشف عن نفسها على نحوين: اولاً من خلال احساس معين بالتوتر يتسم بقدر من الإيلام، وثانياً من خلال تنبيه **ذي أصل مركزي**، أو أكال مسقط على المنطقة الشهوية الطرفية. في مقدورنا إذن ان نقول إن هدف الجنسية استبدال احساس التنبيه المسقط على المنطقة الشهوية بتنبيه خارجي يسكّنه ويخلق شعوراً بالاشباع. وهذا التنبيه الخارجي هو في غالب الاحيان ملامسة يدوية مشابهة للمص.

وأن تكون هذه الحاجة قابلة ايضاً للايقاظ في الطرف، عن طريق تغيير المنطقة الشهوية، فهذه واقعة تتفق تمام الاتفاق مع معارفنا الفيزيولوجية؛ غير ان الشيء الذي لا يخلو من بعض الغرابة هو ألا يكون من سبيل الى تسكين تنبيه من التنبيهات غير إخضاع الموضع نفسه لتنبيه آخر.

٤ ـ التظاهرات الجنسية الاستمنائية

يطيب لنا أن نلاحظ أنه كان حسبنا أن نعرف نشاط الغريزة الجنسية في

(١٣) [بعد مزيد من التمعن في التفكير، وبالاستناد الى مشاهدات اخرى، انتهيت الى عزو الخاصية الشهوية الى جميع اجزاء الجسم والى الاعضاء الداخلية. انظر في تأييد ذلك ما سنقوله في موضع تالٍ عن النرجسية] (عدل سنة ١٩١٥).

(١٤) [من العسير ان نتحاشى، في التفاسير البيولوجية، الأخذ بأي تصور غائي، على الرغم من انه لا تتوفر لنا أية ضمانة لتفادي الزلل في دراستنا للحالات الخاصة] (اضيف سنة ١٩٢٠).

منطقة من المناطق الشهوية لنعرف جوهر النشاط الجنسي . وما سيصادفنا من فروق يتصل بالسبل الضرورية للوصول الى الاشباع : المص بالنسبة الى المنطقة الفموية ـ الشفوية ، وعمل عضلي من نوع مختلف بالنسبة الى المناطق الشهوية الاخرى تبعاً لطوبوغرافيتها وخصائصها .

نشاط المنطقة الشرجية ـ ان الموقع التشريحي للمنطقة الشرجية ، مثله مثل موقع المنطقة الفموية ـ الشفوية ، يهيئها لأن تجعل من احدى الوظائف الفيزيولوجية **متكأ** لنشاط جنسي . وبوسعنا الافتراض ان الاهمية الشهوية لهذه المنطقة كانت في الأصل كبيرة . واننا لنعلم من التحليل النفسي ، بشيء من الدهشة ، ما التحولات التي تطرأ في العادة على التنبيهات الجنسية الصادرة عن هذه المنطقة ، وكيف يتفق لهذه المنطقة في كثير من الاحيان ان تحتفظ ، على امتداد حياة الفرد ، بدرجة معينة من قابلية التهيج التناسلي[١٥] . وللاضطرابات المعوية ، الكثيرة التواتر لدى الطفل ، دور في إبقاء هذه المنطقة في حالة من القابلية الشديدة للتهيج . والنزلة المعوية في مطلع العمر تجعل الطفل « عصبياً » ، كما يقال . وفي وقت لاحق ، تستخدم بعض الاضطرابات المرضية ذات الأصل العصابي في تكوين اعراضها كل انواع الاضطرابات الهضمية . ومتى ما اخذنا بعين الاعتبار الطابع الشهوي للمنطقة الشرجية ـ هذا الطابع الذي حافظت عليه ولو في صورة معدلة ـ ندرك خطأ من يسخر من الدور الذي يعزى الى البواسير في نشوء بعض الحالات العصابية ، هذا الدور الذي كان الطب القديم يعلق عليه أهمية جلى .

ان الاطفال الذين يستخدمون قابلية المنطقة الشرجية عندهم للتهيج الشهوي يفضحون حقيقة أمرهم ، إذ يمسكون موادهم البرازية الى أن يتسبب تراكم هذه المواد في حدوث تقلصات عضلية عنيفة تحدث بدورها ، لدى مرورها بالصارّة الشرجية ، تنبيهاً شديداً . وبوسعنا الافتراض أن إحساس الالم ينضاف اليه إحساس لذة . وان واحدة من أجلى علامات الشذوذ الطبيعي او العصبي الذي سيتظاهر مستقبلاً يقدمها الطفل حين يجلس على

(١٥) انظر مقالي : **الطبع والايروسية الشرجية** ، ١٩٠٨ . وكذلك : **تحولات الغريزة، وبالاخص في الايروسية الشرجية** ، ١٩١٧ .

« القصرية » ويأبى إفراغ أمعائه ويعصى أوامر الأهل ويصر على ألا « يفعلها » إلا متى ما طاب ذلك له هو . وبديهي أنه لا يبالي ان وسّخ حفاظه ؛ وما يهمه هو ألا تضيع منه اللذة الاضافية التي يستمدها من التغوط . ولا يخطىء المربي إذ ينعت الاطفال الذين « يمسكون أنفسهم » بالرذلاء .

[يؤدي المحتوى المعوي اذن ، بالنسبة الى غشاء مخاطي محبو بحساسية جنسية ، دور الجسم المهيِّج ، **مستبقا** بذلك ، بنوع ما ، عضواً اساسياً لن يعلن عن ظهوره إلا بعد مرحلة الطفولة . غير أن للمحتوى المعوي دلالات هامة اخرى ايضاً . فالطفل يعده بطبيعة الحال جزءاً من جسمه ، وهو في نظره « هدية » يثبت بها ، ان قدمها ، طاعته ، وإن امسكها ، عصيانه وعناده . ثم لا تلبث « الهدية » أن تكتسب معنى « الطفل » الذي ترى احدى نظريات الاطفال الجنسية انه يُقتنى ويتخلق بالاكل ويولد من المعي] (اضيف سنة ١٩١٥) .

إن امساك المواد البرازية الذي يستجيب في البداية لرغبة الطفل في استعمالها كمنبه استمنائي للمنطقة الشرجية أو في استخدام هذا الإمساك في علاقته بمن يحيط به من الاشخاص ، لهو أصل من أصول قبض البطن الشائع بين المرضى المعصوبين . ومما يظهر أهمية المنطقة الشرجية اننا لا نجد إلا قلة من المعصوبين لا يتخذون لأنفسهم عادات غائطية خاصة ولا يمارسون طقوساً يحرصون على ان تبقى سراً مخفياً[١٦] .

(١٦) [في مقال أسهم في إفهامنا جسامة الدور الذي ينبغي أن نعزوه إلى ايروسية المنطقة الشرجية (**الشرجي والجنسي** ، مجلة **ايماغو** ، المجلد ٤ ، ١٩١٦) ، اوضحت لو اندرياس سالومي LOU ANDREAS SALOMÉ ان أول تحظير يفرض على الطفل ، ويكون متصلاً باللذة التي يجتنيها من النشاط الشرجي ونتاجه ، يحدد كل مسار تطوره اللاحق . ففي هذه المناسبة يحس المخلوق الصغير لأول مرة أنه محاط بعالم معادٍ لتظاهر غرائزه ، فيتعلم كيف يميز شخصه الصغير من هؤلاء الأغراب ، وكيف يكبت للمرة الاولى امكانياته اللذية . ومنذئذ يغدو « الشرجي » رمز كل ما هو محرم وكل ما ينبغي نبذه من حياته . والفصل المطلق ، المطلوب فيما بعد ، بين المنطقتين الشرجية والتناسلية يتناقض مع علاقات التجاور التشريحي والتشابه الوظيفي القائمة بينهما . فالجهاز التناسلي ما يبرح هو المخرج CLOAQUE ، بل يبدو لدى المراة وكأنه « مستعار منه » على حد تعبير لو اندرياس سالومي] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

ولا يندر في الطور الثاني من الطفولة ان يوجد لدى الصغار تنبيه استمنائي للمنطقة الشرجية بواسطة الاصبع ، بدافع من اسهال ذي أصل مركزي أو طرفي .

نشاط المناطق التناسلية - في جملة المناطق الشهوية لدى الطفل منطقة لا تنعم ، قطعاً ، بالأولوية ولا تصدر عنها المشاعر الجنسية الاولى ، ولكنها مرشحة لتلعب الدور الاعظم مستقبلاً . وهي مرتبطة لدى الصبي والبنت بالتبول(الحشفة ، البظر)؛ وكونها محتواة،فضلاً عن ذلك،لدى الصبي في كيس مخاطي يحتم ان تحدث فيها تنبيهات بفعل الافرازات المتعينة بأحاسيس جنسية مبكرة . والنشاط الجنسي لهذه المنطقة الشهوية ، التي هي جزء من الجهاز التناسلي ، يؤلف بداية ما سيكون هو الحياة الجنسية السوية فيما بعد .

وبالنظر الى الطوبوغرافية التشريحية لهذه المنطقة ، وسيلان الافرازات ، والعناية المبذولة للجسم (غسل وفرك)، وبعض التنبيهات العارضة اخيراً (حركة الطفيليات المعوية لدى البنات الصغيرات) ، يغدو من المحتم أن يحس الطفل حتى في طور الرضاعة باللذة التي يمكن ان تصدر عن هذا الموضع من جسمه فتتولد لديه من ثم حاجة الى التكرار . واذا تذكرنا جملة العادات المتبعة للعناية بالطفل ، وأخذنا في اعتبارنا ان اجراءات النظافة تماثل في مفعولها القذارة والإهمال،[لم نجد مناصاً من الافتراض أن أونانية(*) الرضيع ، التي لا يكاد أي مخلوق يفلت من الوقوع في إسارها،تحدد الأولية المستقبلة لهذه المنطقة الشهوية التناسلية] (عدل سنة ١٩١٥) . اما الافعال التي تضع حداً للتنبيه وتأتي بالإشباع فتتمثل إما بالدعك باليد ، وإما بالضغط عن طريق ضم الفخذين (وهي حركة تمهد السبيل لها أفعال منعكسة) . والحركة الاخيرة هذه شائعة بكثرة لدى البنات الصغيرات . وبالمقابل ، يفضل

(*) الاونانية ONANISME : نسبة الى اونان ، وهو شخص ورد ذكره في التوراة ، واضطر الى الزواج من أرملة أخيه ، ولكنه امتنع عن مضاجعتها بصورة كاملة حتى لا تنجب منه . وقد اصبحت الاونانية مرادفاً للاستمناء ، مع أنها تشير بالأصل الى الجماع المبتور . « م » .

الصبيان اليد ، وهذا ما يشف عن دور غريزة السيطرة في النشاط الجنسي للذكر(١٧) .

[ولمزيد من الوضوح سنميز ثلاثة اطوار غير الاستمناء الطفلي . فأول هذه الاطوار يناظر زمن الرضاعة ، والثاني يقابل الفترة القصيرة التي يتفتح فيها النشاط الجنسي في حوالي السنة الرابعة ؛ والطور الثالث هو وحده الذي يتطابق مع اونانية البلوغ ، التي استأثرت وحدها حتى الآن باهتمام المراقبين] (اضيف سنة ١٩١٥) .

الطور الثاني من الاستمناء الطفلي - تختفي اونانية الرضيع بعد وقت وجيز فيما يبدو . أما اذا استمرت الى زمن البلوغ ، فيكون ذلك أول حيدان خطير عن مسار التطور المفروض ان يسلكه الانسان المتحضر.

وفي زمن محدد يلي زمن الرضاعة (قبل السنة الرابعة في العادة) ، تستيقظ الغريزة الجنسية لهذه المنطقة التناسلية مرة ثانية وتدوم زمناً ما الى أن تتعرض لقمع جديد ، وهذا بطبيعة الحال،ان لم تستمر بلا توقف . والمواقف المختلفة التي قد تنشأ عندئذ عديدة للغاية ، وبيانها يحتاج منا الى تحليل كل منها على حدة . غير ان السمة المشتركة بين جميع الانطباعات التي يخبرها الطفل في اثناء هذه المرحلة **الثانية** من النشاط الجنسي هي أنها تترك آثاراً عميقة (لا شعورية) في الذاكرة وتعين طبع الفرد ان كان مقيضاً له أن يكون سوياً معافى ، وأعراض العصاب ان كان مقيضاً له ان يكون في المستقبل مريضاً(١٨) . وفي هذه الحالة الاخيرة نلاحظ ان المرحلة الجنسية قد نسيت ، وان الذكريات التي يمكن أن تشهد

(١٧) [ان استخدام طرائق خاصة في ممارسة الاونانية في طور لاحق من العمر ليس إلا محاولة للالتفاف على الحظر الذي فرض على هذه الممارسة في الطفولة] (اضيف سنة ١٩١٥) .

(١٨) [ما زلنا في حاجة الى التعمق في أسباب ارتباط شعور المعصوبين بالذنب (كما اثبت ذلك مؤخراً بلولر) بذكرى نشاط اوناني يُمارس في اغلب الأحيان في زمن البلوغ . ومن الممكن التعبير عن هذه العلاقة بصورة تقريبية على النحو التالي : ان الاونانية تمثل بمفردها تقريباً كل النشاط الجنسي عند الطفل وتتحمل بالتالي تبعة الشعور بالذنب الذي يُسقط على كل هذا النشاط] (اضيف سنة ١٩١٥ و ١٩٢٠) .

عليها قد خضعت لعملية نقل . وقد قلت آنفاً إني أستشف علاقة بين النسابة الطفلية السوية وبين النشاط الجنسي في هذا العمر . ونستطيع عن طريق التحليل النفسي ان نرد الى الشعور ما طوته يد النسيان ، وأن نلغي على هذا النحو دافعاً قهرياً مصدره المادة النفسية اللاشعورية .

عودة استمناء الرضيع ـ يعود التنبيه الجنسي لطور الرضاعة في ابان الطفولة الثانية في صورة اكال ذي أصل مركزي ، يتطلب إشباعاً عن طريق الاونانية او عن طريق نوع من الاحتلام يؤدي ، كما لدى الراشد ، الى إشباع دون مداخلة يدوية . وهذه الافرازات شائعة بكثرة لدى البنات الصغيرات في الطفولة الثانية ، ولسنا نعرف شروطها على وجه اليقين . ويبدو أنه يسبقها في الغالب ، ان لم يكن دائماً ، مرحلة من الاونانية النشيطة . وأعراض هذا التظاهر للجنسية فقيرة ، والعضو التناسلي لا يزال ناقص النمو ، وجهاز التبول يقوم بوظيفة القيِّم عليه . ومعظم امراض المثانة في هذا الطور عبارة عن اضطرابات ذات أصل جنسي ، والتبول اللاإرادي في الليل هو بمثابة احتلام ، إلا اذا كان السبب فيه الصرع .

يخضع تجدد النشاط الجنسي لمؤثرات من مصدر داخلي او خارجي . وتساعدنا أعراض الاعصبة والفحوص التحليلية النفسية على الاستدلال على هذه الأسباب وعلى تحديدها على نحو محقق . ولنا عودة الى الكلام لاحقاً عن الاسباب الداخلية . اما الاسباب الخارجية فتكتسب في هذه الفترة اهمية كبيرة ودائمة . وأهم هذه المؤثرات إطلاقاً ذلك الذي يتمثل بالإغواء الذي يجعل من الطفل موضوعاً جنسياً مبكراً ويعلّمه كيف يتم إشباع المنطقة التناسلية في ظروف يكون لها في نفسه وقع عظيم . وغالباً ما يجد الطفل نفسه مدفوعاً الى تجديد هذه الخبرات عن طريق ممارسة الاونانية . ومصدر الإغواء في هذه الحالات الراشدون أو رفاق الطفل . ولا أعتقد أني بالغت ، في مقالي المنشور عام ١٨٩٦ عن **أسباب الهستيريا** ، في نسبة تواتر حالات الاغواء هذه أو في أهميتها . لكني كنت لا ازال أجهل يومئذ ان بعض الافراد الذين ظلوا أسوياء تعرضوا في طفولتهم للخبرات ذاتها ، ومن ثم كنت أعلق على الاغواء أهمية اكبر من تلك التي أعلقها على

عاملي الجبلة والنمو الجنسيين[١٩]. وغني عن البيان أن الاغواء ليس ضرورياً لتيقظ الجنسية لدى الطفل ، وأن هذه اليقظة قد تحدث تلقائياً بتأثير علل باطنة .

الاستعداد الانحرافي المتعدد الاشكال ـ من المفيد ان نلاحظ أن الطفل ، الذي يتعرض للاغواء ، قد يصاب بانحراف متعدد الاشكال وينقاد الى ضروب شتى من التعديات. وعلى هذا ، فإن لديه استعداداً فطريا لها . والافعال الانحرافية تلاقي مقاومة واهنة ، على اعتبار ان السدود النفسية التي تعترض سبيل الشطط الجنسي (الحياء ، القرف ، الاخلاق) لم تنبن بعد أو هي قيد البناء ، تبعاً لعمر الطفل . ومن هذا المنظور لا يختلف سلوك الطفل ازاء المغوي عن سلوك المرأة المتوسطة التي لم يطلها تأثير الحضارة والتي حافظت بالتالي على استعداد فطري انحرافي متعدد الأشكال . ولا ريب في أن امرأة لديها مثل هذا الاستعداد يمكن ان تبقى ، في ظروف الحياة العادية ، سوية من الناحية الجنسية ؛ أما اذا وقعت بين يدي مغو ماهر فقد تستعذب جميع ضروب الانحراف وتمارسها مذّاك فصاعداً ضمن نشاطها الجنسي . وتستغل البغي هذا الاستعداد المتعدد الاشكال ، وبالتالي الطفلي ، لصالح حرفتها . وان اخذنا في اعتبارنا ضخامة عدد البغايا والنساء اللائي لا سبيل الى المماراة في قابليتهن للبغاء ، وان لم يحترفنه قط ، لم نجد مناصاً من الإقرار بأن هذا الاستعداد للانحرافات كافة سمة بشرية عامة وأساسية .

الغرائز الجزئية ـ لا يفيدنا الإغواء علماً بصدد بدايات الحياة الجنسية لدى الطفل ؛ بل على العكس ، فقد تضللنا حالات الاغواء بسهولة

---

(١٩) يسوق هافلوك ايليس في ملحق لدراسته المعنونة : **علم النفس الجنسي** ، طائفة من الشهادات قبسها من سير حياة أفراد أسوياء عن الاثارات الجنسية الأولى في طفولتهم وعن الظروف التي حدثت فيها . والثغرة التي تظهر في هذه الشهادات تناظر بطبيعة الحال فترة النسابة الطفلية ، التي هي للحياة الجنسية بمثابة ما قبل تاريخ ، ولا سبيل الى ردم هذه الثغرة لدى فرد صار عصابياً إلا عن طريق التحليل النفسي . على ان تلك الشهادات نفيسة من اكثر من ناحية ، ومعلومات من هذا النوع هي التي حملتني على تعديل فروضي الاتيولوجية بالاتجاه الذي اخذت به في نصي عن هذا .

لأننا نواجه في هذه الحال أطفالاً خبروا ، قبل الأوان ، موضوعاً جنسياً ما كانت تدفعهم إليه اية حاجة . على أنه لا بد لنا من الاقرار بأن جنسية الطفل ، وان كانت الغلبة فيها لدور المناطق الشهوية ، تتضمن ، فضلاً عن ذلك ، مركبات تحض الطفل على التوجه ، من البداية ، الى أشخاص آخرين باعتبارهم موضوعاً جنسياً . ومن جملة هذه المركّبات نخص بالذكر تلك التي تدفع بالاطفال الى التلصص والاستعراء ، وكذلك غريزة القسوة . هذه الغرائز ، التي لن تتوثق روابطها بالحياة التناسلية إلا فيما بعد ، لها وجودها الملحوظ منذ الطفولة ، رغم انها تكون آنئذ مستقلة عن النشاط الجنسي للمناطق الشهوية . فالطفل الصغير يجهل الحياء جهلاً تاماً ، ويبدي في سنوات الطفولة الاولى لذة لا لبس فيها في كشف جسمه جاذباً الانتباه الى أعضائه التناسلية . ونقيض هذا الميل ، الذي نعده انحرافياً ، هو التشوف الى رؤية الاجزاء التناسلية لشخص آخر . ويظهر هذا التشوف في الطفولة الثانية حين يكون الحاجز الذي نصبه الحياء قد بلغ درجة معينة من القوة . وبتأثير الإغواء ، يمكن أن يكتسب الانحراف التلصصي أهمية قصوى في حياة الطفل الجنسية . على ان الكشوف التي أجريت على أطفال وعلى اشخاص أسوياء ومعصوبين جعلتني أستنتج ان غريزة حب النظر يمكن ان تظهر في المضمار الجنسي تلقائياً . فإن اتجه انتباه الاطفال الصغار مرة الى اجزائهم التناسلية ، إثر استمناء في غالب الاحيان ، مضوا في هذا السبيل بلا تدخل خارجي وأظهروا اعظم الاهتمام بالاجزاء التناسلية عند رفاقهم الصغار . وبما أن فرصة إشباع هذا الفضول لا تسنح إلا في اثناء اداء وظيفتي التبول والتغوط ، يصبح الاطفال متلصصين،أي ولوعين بمشاهدة هذين الفعلين الفيزيولوجيين . ومتى ما كبتت هذه الميول ، بقيت الرغبة في رؤية الجهاز التناسلي (من الجنس نفسه أو من الجنس الآخر) قائمة ، وقد تتخذ شكل دافع قهري متسلط يغدو ، لدى بعض المعصوبين ، قوة حاسمة الأثر في تكوين أعراض مرضية .

ان القسوة ، التي هي عنصر في المركّب الجنسي ، تتسم في تطورها بقدر اكبر بعد من الاستقلال عن النشاط الجنسي المرتبط بالمناطق

الشهوية . فالطفل بصفة عامة نزّاع الى القسوة ، لأن غريزة السيطرة لم يكبحها بعد مرأى ألم الغير ، على اعتبار ان الشفقة لا تنمو إلا في زمن متأخر نسبياً . وما امكن الى اليوم ، كما نعلم ، التوصل الى تحليل معمق لهذه الغريزة ؛ [وأقصى ما نستطيع التسليم به أن الميل الى القسوة يتفرع من غريزة السيطرة وان ظهوره في الحياة الجنسية يكون في وقت لما تضطلع فيه الاعضاء التناسلية بعد بدورها النهائي . وهو يسيطر على طور بأكمله من الحياة الجنسية سوف نصفه فيما بعد بأنه التنظيم القبتناسلي] (عدل سنة ١٩١٥) . والاطفال الذين يدللون على قسوة بالغة حيال الحيوانات وحيال رفاقهم يُشتبه في العادة ، وبحق، بأن المناطق الشهوية عندهم تعرف نشاطاً كثيفاً ومبكراً ، وعلى الرغم من ان جميع الغرائز الجنسية تتسم في هذه الحال بنمو سابق لأوانه فإن نشاط المناطق الشهوية يبدو هو الراجح الكفة . وغياب الشفقة يستتبع خطراً محدداً ، وهو أن تصبح الصلة التي انعقدت في اثناء الطفولة بين الغرائز الايروسية والقسوة غير قابلة للفصم في الاطوار اللاحقة من الحياة .

إن أحد الجذور الشهوية للميل السلبي الى القسوة (المازوخية) يتمثل في التنبيه المؤلم لمنطقة الاليتين ، وهذه ظاهرة معروفة جيداً منذ **اعترافات** جان جاك روسو(*) . وقد استخلص المربون من ذلك ، بحق، ان العقوبات الجسدية التي تُخص بها هذه المنطقة من الجسم عادة ينبغي الامتناع عن إنزالها بالاطفال الذين هم عرضة ، تحت تأثير الحضارة ، لأن يتطور الليبيدو عندهم في قنوات جانبية[٢٠] .

(*) الإشارة هنا الى ما اورده روسو في **اعترافاته** عن إحساس اللذة الذي خلفته في شعوره معلمة اللغة اللاتينية حين عاقبته ، وهو في الثامنة من العمر ، بضربه على إليتيه . » « م » .

(٢٠) [خلصت في عام ١٩٠٥ إلى هذه الاستنتاجات بصدد الجنسية الطفلية بناء على نتائج فحوص تحليلية نفسية أجريت على راشدين . ولم يكن ثمة مجال يومئذ لممارسة الملاحظة المباشرة للاطفال بحرية ، ولم تكن هذه الملاحظة قد أثمرت إلا بعض بيّنات متفرقة وبعض معطيات مفيدة . وقد نجحنا منذئذ ، بتحليلنا بعض حالات العصاب الطفلي ، في النفاذ بصورة أكثر مباشرة الى الجنسية النفسية للطفل (**حولية البحوث التحليلية النفسية والمرضية النفسية** ، المجلد ١ ، ١٩٠٩ ، والمجلدات التالية) . وإنه ليسعدني أن أسجل =

٥- [البحث الجنسي عند الطفل

غريزة المعرفة ـ في هذه الفترة نفسها ، التي تدرك فيها حياة الطفل الجنسية أولى ذرى تفتحها ـ ما بين السنة الثالثة والخامسة ـ تظهر بواكير نشاط تحض عليه غريزة البحث والمعرفة . ولا يمكن ان ندرج غريزة المعرفة في عداد المركبات الغريزية الأولية للحياة الوجدانية،كما أنه من المتعذر أن نجعلها تابعة للجنسية حصراً . فنشاطها يناظر، من جهة ، تصعيد غريزة السيطرة ، وهي تستخدم ، من الجهة الثانية ، حب النظر طاقة لها . على أن العلاقات التي تقيمها مع الحياة الجنسية بالغة الاهمية ؛ فالتحليل النفسي يكشف لنا عن أن هذه الحاجة الى المعرفة تظهر في وقت أبكر مما يُعتقد بعامة ؛ والطفل ينجذب الى المشكلات الجنسية بقوة لا متوقعة، بل يباح لنا القول إن هذه المشكلات هي التي توقظ ذكاءه .

لغز ابي الهول ـ الحاجة العملية ، لا الاهتمام النظري ، هي التي تدفع بالطفل الى هذا البحث . فهو حين يشعر بأنه مهدّد بقدوم فعلي أو مفترض لطفل جديد الى الأسرة ، وحين يرتاب في أن هذا الحدث قد يترتب عليه بالنسبة إليه نقص في العناية أو في الحب ، يشرع بالتفكير ويطفق

= ان الملاحظة المباشرة قد أيدت الاستنتاجات التي كان انتهى اليها التحليل النفسي ، وهذه شهادة حاسمة على مشروعية هذا المنهج في البحث .

لقد امدنا تحليل رهاب صبي صغير (هانز الصغير) بمعلومات كثيرة لم يعدّنا لها التحليل النفسي ، ومنها ان الرمزية الجنسية ، اي تمثيل ما هو جنسي بمواضيع وعلاقات غير جنسية ، ترجع زمنياً الى اولى المحاولات التي يبذلها الطفل للتعبير عن نفسه بالكلام . وقد وجدتني ، فضلاً عن ذلك ، مرغماً على التنبيه الى ما وقعت فيه من خطأ في تفسيري السابق حينما جعلت ، ابتغاء الوضوح ، تعاقباً زمنياً بين طوري الايروسية الذاتية والحب الموضوعاني .

والواقع أن التحاليل التي سقناها اعلاه ، وكذلك المعلومات التي أمدنا بها بل BELL ، تفيدنا أن الأطفال في ما بين الثالثة والخامسة من العمر قادرون بما لا يدع مجالاً للبس على القيام باختيار جنسي ذي طابع موضوعاني، وأن هذا الاختيار يمكن ان يحرك فيهم انفعالات قوية] (اضيف سنة ١٩١٠) .

ذهنه يعمل . وأولى المشكلات التي تشغله ، بمقتضى درجة نموه ، ليست معرفة الفارق بين الجنسين ، بل اللغز الكبير : من أين يأتي الاطفال ؟ وهذا اللغز هو عينه اللغز الذي يطرحه وحش طيبة(*) وان في صورة منكّرة يسهل النفاذ منها . وأما وجود الجنسين فالطفل يقبل به بلا اعتراض ، ومن غير ان يعلق على الأمر أهمية كبيرة . ولا يماري الصبيان الصغار على الاطلاق في ان كل الاشخاص الذين يلتقونهم لهم جهاز تناسلي مماثل لجهازهم ؛ فليس في مكنتهم التوفيق بين غياب هذا العضو وبين الفكرة التي في تصورهم عن الغير .

عقدة الخصاء وحسد القضيب ـ يتمسك الصبيان الصغار بعناد بهذا الاعتقاد ، ويذودون عنه ضد كل الوقائع المناقضة التي لا تلبث المشاهدة أن تكشف لهم عنها ، ولا يتخلون عنه في كثير من الاحيان إلا بعد مرورهم بصراعات داخلية خطيرة (عقدة الخصاء) . وجهودهم في سبيل إيجاد معادل لقضيب المرأة المفتقد تلعب دوراً كبيراً في تكوين انحرافات عديدة[٢١] .

ان افتراض وجود جهاز تناسلي واحد (عضو الذكورة لدى بني الانسان قاطبة) هو أول نظرية من النظريات الجنسية الطفلية ، المتعة دراستها والخصبة نتائجها . ولا يهم الطفل في كثير أو قليل ان تؤيد البيولوجيا صحة ظنه بإقرارها ان بظر المرأة بديل فعلي عن القضيب . وبالمقابل ، لا تمانع الفتاة الصغيرة في القبول والاعتراف بوجود جنس مغاير لجنسها عندما يقع نظرها على العضو التناسلي للصبي الصغير ؛ فيستبد بها الحسد القضيبي الذي يحرك فيها رغبة ، بالغة الاهمية في نتائجها لاحقاً ، في ان تكون بدورها صبياً .

نظريات عن الولادة ـ يذكر كثير من الناس كم كان اهتمامهم

(*) الإشارة هنا الى اسطورة اوديب . « م » .

(٢١) [من المباح لنا ان نتكلم عن عقدة خصاء لدى المرأة ايضاً . فالأطفال من كلا الجنسين يتخيلون نظرية مؤداها ان المرأة كان لها، في الأصل ، قضيب ، ثم فقدته نتيجة الخصاء . وحين يقتنع الصبيان في نهاية المطاف بأن المرأة لم تملك قط قضيباً ، لا يندر ان يأخذهم ازدراء دائم للجنس الآخر] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

عظيماً ، في فترة ما قبل البلوغ ، بمعرفة من أين يأتي الاطفال . والحلول التشريحية التي اخذوا بها يومذاك متنوعة . ومنها افتراضهم أن الأطفال يولدون من الثدي ، أو يخرجون من البطن عن طريق شقه ، أو أن السرة تنفتح لتفسح لهم ممراً[٢٢] . وبلا معونة التحليل النفسي ، يعز على الكثيرين ان يتذكروا بحوثهم بصدد هذا الموضوع في طفولتهم ؛ فعامل الكبت قد تدخل ، لكن جميع تلك البحوث كانت تؤول الى نتيجة واحدة : فالطفل يُنجب بعد تناول نوع معين من الطعام (كما في الحكايا الخرافية) ، والأطفال يولدون من المعـي ، كما عند التغوط . وهذه النظريات الطفلية تذكرنا بوقائع معينة من مملكة الحيوان ، وعلى الاخص بوجود المخارج CLOAQUES عند الانواع الدنيا .

التصور السادي للعلاقات الجنسية ـ متى عاين صغار الاطفال اتصالاً جنسياً بين أهلهم(وغالباً ما يتيح لهم هؤلاء الفرصة اعتقاداً منهم بأن الطفل أصغر سناً من ان يفهم الحياة الجنسية) ، بادروا الى تأويل الفعل الجنسي على أنه ضرب من سوء المعاملة أو من إساءة استعمال القوة ؛ أي أنهم يخلعون على هذا الفعل مدلولاً سادياً . ويفيدنا التحليل النفسي ان انطباعاً كهذا في الطفولة الاولى يسهم إسهاماً كبيراً في تمهيد السبيل لاحقاً امام نقل سادي للهدف الجنسي . ويهتم الاطفال اهتماماً كبيراً ايضاً بمعرفة ما كنه الاتصال الجنسي ، او التزوج كما يقولون ؛ والحل الذي ينتهون اليه في العادة هو أن ثمة اتصالاً يحدث في لحظة التبول او التغوط .

فشل نمطي للبحث الجنسي الطفلي ـ في مقدورنا القول،بصفة عامة ، ان النظريات الجنسية الطفلية ما هي إلا انعكاس للجبلّة الجنسية ، وأنها تنم ، رغم أخطائها العجيبة ، عن تفهم للافعال الجنسية أكبر مما قد يفترضه المرء بادىء الأمر . فالأطفال يتنبهون للتغيرات التي يحدثها الحمل لدى الأم، وتأويلهم لها صحيح. فأسطورة اللقالق تقابل منهم

(٢٢) [تغزر النظريات الجنسية غزارة كبيرة في السنوات الاخيرة من الطفولة . ولم اورد منها هنا سوى أمثلة قليلة] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

بارتياب كبير(*) وان كانوا لا يفصحون عنه . على أن الطفل ، الجاهل بدور المني في الحياة الجنسية وبوجود الفتحة المهبلية ـ وهما عنصران غير بارزي الحضور في ذلك العمر ـ لايتأتى له ان يصل الى نتيجة صحيحة في بحثه . وعندما يعزف عنه ، يلحق ضرر مستديم بغريزة المعرفة عنده . ويقوم الطفل ببحوثه الجنسية بمفرده دوماً ؛ وهي بالنسبة إليه خطوة أولى لشق طريقه في العالم ، وهذا ما يشعره بالغربة عن أشخاص محيطه بعد ان كانوا ، الى ذلك الحين ، يحظون بكامل ثقته] (فصل أضيف سنة ١٩١٥) .

٦- [اطوار نمو التنظيم الجنسي

رأينا حتى الآن أن ما يميز الحياة الطفلية هو أنها ايروسية ذاتية في جوهرها (يلقى الطفل موضوعه في جسمه بالذات) ، وأن الغرائز الجزئية غير مترابطة ترابطاً وثيقاً فيما بينها ، ومستقلة عن بعضها بعضاً في نشدانها اللذة . ويفضي النمو الى ما اعتدنا ان نسميه بالحياة الجنسية السوية لدى الراشد ، التي يوضع فيها نشدان اللذة في خدمة وظيفة الإنسال ، بينما تؤلف الغرائز الجزئية ، الخاضعة لزعامة منطقة شهوية وحيدة ، تنظيماً متيناً قادراً على بلوغ الهدف الجنسي الذي يرتبط من الآن فصاعداً بموضوع جنسي غريب عن شخص الطفل .

التنظيمات القبتناسلية ـ ان اعتمادنا على التحليل النفسي في دراسة ضروب الكف والاضطراب التي تصيب هذا النمو يتيح لنا أن نتعرف وجود بدايات وتشكيلات أولية لتنظيم الغرائز الجزئية التي تحقق على هذا النحو نوعاً من نظام جنسي . ويمر الطفل في العادة بمختلف أطوار التنظيم الجنسي بلا صعوبة ، دون ان يكون في المستطاع تمييزها إلا من خلال بعض القرائن . وانما في الحالات المرضية فحسب تبرز هذه الاطوار وتسترعي الانتباه ويغدو سهلاً تعرّفها .

(*) يقال للأطفال في الغرب ان اللقالق هي التي تأتيهم بإخوة لهم . « م » .

اننا نطلق على تنظيمات الحياة الجنسية التي لا تضطلع فيها المناطق التناسلية بعد بدور الزعامة صفة **القبتناسلية** . وقد عرفنا منها حتى الآن تنظيمين ينمان عن عودة الى الاشكال البدائية للحياة الحيوانية .

التنظيم الجنسي القبتناسلي الأول هو ذاك الذي نسميه **بالفموي** ، أو إذا شئتم بالآدمــي CANNIBALE . وفي هذا التطور لا يكون النشاط الجنسي منفصلاً عن تناول الطعام ، إذ لا يكون تمايز العمليتين قد ظهر للعيان بعد . ولكلا النشاطين موضوع واحد ، والهدف الجنسي يتمثل **باستدماج** الموضوع ، وهو نموذج بدئي لما سيكون عليه لاحقاً **التماهي** IDENTIFICATION الذي يفترض فيه ان يلعب دوراً هاماً في النمو النفسي . ومن الممكن أن نعد المص رسابة من هذا الطور التنظيمي الذي ما كنا لنعرف بوجوده الافتراضي لولا علم الامراض . وبالفعل ، ان النشاط الجنسي يستبدل في المص ، غب انفصاله عن النشاط الغذائي ، الموضوع الغريب بجزء من جسم الفرد المعني[٢٣] .

أما الطور القبتناسلي الثاني فهو الذي نسميه بالطور **السادي - الشرجي** . وفيه يتجلى بوضوح التعارض الذي يستمر مدى الحياة الجنسية ؛ غير ان القطبين المتعارضين ليسا بعد **المذكر والمؤنث** ، وانما الضدان : **الموجب والسالب** . ويبدو أن العنصر الموجب يتألف من غريزة السيطرة ، المرتبطة هي نفسها بالجهاز العضلي ؛ أما العضو الذي هدفه الجنسي سالب فيتمثل بالغـشاء المخاطي المعوي الشهوي . ولكل من هذين التيارين مواضيع لا تتطابق . والى جانبهما تنشط غرائز جزئية اخرى نشاطاً ايروسياً ذاتياً. ونلتقي في هذا الطور من نمو الحياة الجنسية بالقطبية الجنسية ، ونعاين وجود موضوع ايروسي غيــري . أما ما نفتقده

(٢٣) [بصدد بقايا هذا الطور لدى المعصوبين الراشدين ، انظر مقال ابرهام (**مباحث حول المرحلة القبتناسلية الاولى لتطور الليبيدو** ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، المجلد ٤ ، ١٩١٦) . وفي مؤلّف لاحق (**مبحث في تاريخ تطور الليبيدو** ، ١٩٢٤) يقسم ابرهام هذه المرحلة الفمية ، وكذلك المرحلة السادية الشرجية التي تعقبها ، الى طورين يتميز كل منهما بسلوك مختلف ازاء الموضوع] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

بالمقابل فهو تنظيم الغرائز الجزئية وخضوعها لوظيفة الإنجاب[٢٤] .

الازدواجية - قد يدوم هذا الشكل من التنظيم الجنسي مدى الحياة ، ويمارس سيطرته على شطر كبير من النشاط الجنسي . وتضفي السادية الصريحة واهمية المنطقة الشرجية ، التي تؤدي دور المخرج ، على هذا التنظيم الجسمي طابعاً أثرياً بارزاً . وثمة سمة اخرى : فالغرائز المتضادة متعادلة في قوتها ، وهو ما وفق بلولر BLEULER في تسميته باسم **الازدواجية** AMBIVALENCE .

ان فرضية وجود هذه التنظيمات القبتناسلية للحياة الجنسية تقوم على تحليل الاعصبة ، وبدون معرفة هذه الاخيرة يكاد يتعذر الاخذ بها . ولنا ان نتوقع أن تقودنا بحوثنا التحليلية النفسية الى معرفة اكمل فاكمل ببنية الوظائف الجنسية السوية وتطورها .

وينبغي ان نضيف ، استكمالاً لصورة الجنسية الطفلية ، أنه غالباً (بل دائماً) ما يقع الاختيار منذ عهد الطفولة على موضوع جنسي (اختيار حددناه بأنه من مميزات البلوغ) ، بحيث تتجه جميع الميول الجنسية نحو شخص واحد وتنشد عنده إشباعها . على هذا النحو يتحقق في سنوات الطفولة شكل للجنسية هو أقرب الاشكال الى الصورة النهائية للحياة الجنسية . أما الفارق بين هذه التنظيمات وبين الحالة النهائية فينحصر بأن تركيب الغرائز الجزئية وخضوعها الكامل لزعامة المنطقة التناسلية لا يتحقق أبداً لدى الطفل ، أو لا يتحقق إلا على نحو ناقص غاية النقص . والطور الاخير من النمو الجنسي هو وحده الذي سيوطد هذه الزعامة[٢٥] .

(٢٤) [يلفت ابرهام الانتباه (في ثاني المقالين المذكورين) الى ان الشرج ينمو بدءاً من الفم الاولي BLASTOPORE للجنين ، وهذه واقعة بيولوجية تمثل نموذجاً للتطور الجنسي النفسي] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

(٢٥) [في عام ١٩٢٣ عدلت بنفسي تصوري فأدخلت على نمو الطفل طوراً ثالثاً يقع بعد التنظيمين القبتناسليين . وفي هذا الطور ، الجدير من ذلك الحين بأن يسمى تناسلياً ، نجد موضوعاً جنسياً ، وقدراً من التلاقي بين الميول الجنسية حول هذا الموضوع . لكن ثمة فارقاً أساسياً بينه وبين التنظيم النهائي في زمن النضج الجنسي : فهذا الطور لا يعرف سوى ضرب واحد =

زمنا اختيار الموضوع ـ إن من سمات الاختيار الجنسي وقوعه في زمنين ، أو على دفعتين . الدفعة الاولى تبدأ بين السنة الثانية والخامسة ، ثم تتوقف أو قد تنكص في إبان فترة الكمون التالية لها . وهي تتميز بالطبيعة الطفلية للاهداف الجنسية . أما الدفعة الثانية فتبدأ عند البلوغ وتحدد الشكل النهائي الذي ستأخذه الحياة الجنسية .

إن وقوع اختيار الموضوع على دفعتين ، أي ـ بعبارة اخرى ـ وجود مرحلة كمون جنسي، أمر له خطورته الجسيمة في نشوء اضطرابات الحالة النهائية . فاختيار الطفل يستمر في إتيان مفاعيله ، سواء أبقيت على شدتها الاولى ، أم عرفت في أثناء البلوغ إحياء وتجديداً . وبنتيجة الكبت الذي يقع بين الطورين ، لا يعود موضوع الاختيار قابلاً للاستخدام . ويطرأ على الاهداف الجنسية ، المتكونة على هذا النحو ، قدر من الوهن ، فتتبدى في تلك الفترة على أنها مجرد تيار من **الحنان** في الحياة الجنسية . والتحليل النفسي هو وحده الذي يستطيع ان يكشف انه، وراء هذا الحنان ، وهذا الاحترام وهذا التوقير ، تختبىء الميول الجنسية القديمة المتولدة عن الغرائز الجزئية التي أمست الآن معطّلة . ولا يتسنى للمراهق ان يقوم باختيار موضوع جنسي جديد إلا بعد أن يتخلى عن مواضيع طفولته . وعندئذ يظهر تيار **شهواني** جديد . وان لم يقيض للتيارين ان يتلاقيا ، تعذر ان يتحقق أحد المثل العليا للحياة الجنسية ، وأعني به تركز جميع أشكال الرغبة على موضوع واحد] (فصل اضيف سنة ١٩١٥) .

٧ ـ مصادر الجنسية الطفلية

افادتنا بحوثنا حول الاصول البعيدة للجنسية أن التهيج الجنسي يتولد : أ ـ عن طريق استعادة صورة إشباع مرتبط بسيرورات عضوية غير جنسية ، ب ـ من جراء تنبيه طرفي للمناطق الشهوية ، جـ ـ بفعل

= من الاعضاء التناسلية ، هو العضو الذكر . ولهذا السبب أسميه طور التنظيم القضيبي (انظر **التنظيم التناسلي الطفلي** ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، المجلد ٩ ، ١٩٢٣) . ويرى أبرهام ان نموذجه البيولوجي الأول يتمثل بالطابع اللامتمايز شِقّياً للجهاز التناسلي لدى الجنين من كلا الجنسين] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

بعض الغرائز التي لا نعرف اصولها بعد تمام المعرفة ، نظير غريزة النظر وغريزة القسوة . والنتائج التي نستخلصها بصدد الطفولة من تحليل الراشدين ، والمشاهدات التي نجريها على الاطفال ، تهدينا الى مصادر دائمة للتهيج الجنسي . ويعيب المشاهدة المباشرة أنها تفسح مجالاً بسهولة لضروب شتى من سوء الفهم ؛ أما ما يجعل مهمة المحلل النفسي من جهة اخرى عسيرة فهو أنه لا يصل الى موضوع دراسته والى نتائجه إلا بعد طول لف ودوران . على أن الجمع بين المنهجين قمين بإيصالنا الى درجة كافية من اليقين .

علمنا من قبل ان المناطق الشهوية تتمتع بدرجة عالية من قابلية الاثارة . غير ان المناطق الشهوية تتوزع على امتداد البشرة . فلن نعجب اذن ان علمنا أنه يتحتم ان نعزو الى بعض تنبيهات البشرة مفعولاً شهوياً لا ممارة فيه . ونخص بالذكر من هذه التنبيهات الاحاسيس الحرارية التي لها أهمية بالغة ، وربما ساعدنا ذلك على فهم المفاعيل العلاجية للحمام الساخن .

تنبيهات من طبيعة آلية ـ في هذا السياق نفسه تحتل مكانها الاهتزازات والحركات الايقاعية ذات الأصل الآلي ، التي تفعل فعلها وتثير احاسيس مختلفة عن طريق كل من الجهاز الحواسي للعصب الدهليزي[*] ، والبشرة ، وجهاز الحساسية العميقة (العضلات ، المفاصل) . وقبل ان نحلل الاحاسيس اللذية المتولدة عن التنبيهات الميكانيكية ، ينبغي ان نشير الى اننا سنستخدم في الفقرات التي ستلي تعابير « التهيج الجنسي » و « الاشباع » بغير ما تمييز ، على أن نحدد معناها فيما بعد . وإني لأرى ان الدليل على ما يتولد من لذة عن بعض الاهتزازات الآلية يقدمه ولع الاطفال ببعض الالعاب ، وإلحاحهم على تكرارها متى ما خبروها لمرة واحدة[٢٦] . فالهدهدة وسيلة دارجة لإنامة

(*) نسبة الى دهليز الأذن . « م » .

(٢٦) يتذكر بعض الاشخاص انه ساورتهم اثناء تأرجحهم لذة جنسية ، وذلك كلما لامس الهواء اجزاءهم التناسلية .

الاطفال . كما ان الاهتزازات الايقاعية اثناء نزهة في العربة او رحلة في القطار لها وقع أخاذ في نفوس الاطفال الاكبر سناً ، حتى إن الصبيان منهم على الاقل يحلمون جميعاً بأن يكونوا من سائقي القطارات أو العربات . وهم يولون كل ما له صلة بالسكك الحديدية اهتماماً مسرفاً وملغزاً ، ومتى وصلوا الى سن نشاط المخيلة ، أي قبيل البلوغ بقليل ، اتخذوا منها نواة لترميز جنسي واضح . ومن الجلي أن ما يخلق رابطاً قهرياً بين الاحاسيس المتولدة عن حركة القطار وبين الجنسية هو الطابع اللاذ المرتبط بالاحاسيس الحركية . فإذا ما تدخل بعد ذلك الكبت وقلب ايثارات الطفل الى ضدها ، فلا يندر أن تأتي استجابة المراهق او الراشد للهزهزة والهدهدة في صورة إحساس بالغثيان ؛ أو قد ينهكهما السفر بالسكة الحديدية إنهاكاً شديداً ، بينما تنتاب غيرهما نوبات قلق وحصر ؛ وقد ينشأ عن ذلك **رهاب السكة الحديدية** الذي لن يعدو في هذه الحال ان يكون وسيلة دفاعية يذود بها الفرد عن نفسه تكرارِ خبرة مؤلمة .

ضمن هذا السياق من الافكار ينبغي ان نبحث عن تفسير لواقع أن التأثير المتضافر للذعر وللارتجاج الميكانيكي يولد حالة خطيرة من الهستيريا الرضية . وبوسعنا على الاقل الافتراض أن المؤثرات ذاتها التي تكون مصادر للاثارة ان كانت على درجة دنيا من الشدة قد تتسبب ، اذا شطت وأسرفت ، في حدوث اضطرابات عميقة في الاوالية او الكيماوية الجنسية .

النشاط العضلي ـ من الحقائق المعروفة أن الطفل يشعر بحاجة الى ممارسة حرة للنشاط العضلي ، وأنه يستمد من مثل هذه الممارسة لذة كبيرة . أما معرفة ما اذا كانت هذه اللذة ذات صلة بالجنسية ، وما اذا كانت تنطوي بذاتها على إشباع جنسي أو ما اذا كانت توفر مناسبة لإثارات من هذا النوع ، فمسألة اخرى . ولا ريب في ان افتراض ارتباط من هذا القبيل سيُقابل بالاعتراض ، ولا ريب في ان هذا الاعتراض سينصب ايضاً على الفرض الذي تقدمنا به أعلاه والقائل ان اللذة المتولدة عن حركات سلبية هي من طبيعة جنسية أو قمينة على الاقل باستثارة احاسيس جنسية . ويقر الكثيرون من الاشخاص بأن أول مرة أحسوا فيها بتهيج في

الجهاز التناسلي كانت اثناء تصارعهم مع رفاقهم . ففي أشباه هذه المصارعات يقترن توتر جميع عضلات الجسم بالمفعول المهيِّج للاحتكاك بجلد الخصم . وحين يسعى أحدهم الى التصارع الجسمي مع شخص بعينه ، أو حين يميل في طور لاحق من العمر الى التخاصم وإياه لفظياً (الحب شكاس) ، فمن المباح التكهن بأن اختياره الجنسي سيقع على هذا الشخص . وأحد أصول الغريزة السادية يمكن ان يكون مرده الى واقع ان النشاط العضلي ييسِّر التهيج الجنسي . والربط في اثناء الطفولة بين حب المصارعة والتهيج الجنسي يسهم لدى عدد كبير من الافراد في تحديد ما سيؤول اليه لاحقاً نشاطهم الجنسي المفضل(٢٧) .

السيرورات الانفعالية ـ ان المصادر الأخرى للتنبه الجنسي لدى الطفل أقل عرضة للتشكيك . فمن السهل ان نتحقق عن طريق المشاهدة والتحليل الارتجاعي من أن جميع السيرورات الانفعالية التي بلغت درجة معينة من الشدة ، بما فيها الشعور بالهلع ، ينعكس أثرها على الجنسية ؛ وهذا ما سيساعدنا أصلاً على فهم العواقب الإمراضية لهذا النوع من الانفعالات . ومن الممكن ان يؤدي الخوف من الامتحان والتيقظ الذي يقتضيه فرض صعب الى تفتح التظاهرات الجنسية لدى تلامذة المدارس ؛ وقد يدفع التهيج بالطفل في هذه الحال الى لمس أعضائه التناسلية ، بل قد يتسبب في نوع من الاحتلام بكل ما يستتبعه من عواقب مبلبلة . وسلوك الاطفال في المدرسة ، الذي غالباً ما يقف المربون حيارى في تفسيره ، ينبغي ان يفهم بدالّة جنسيتهم النامية . والتهيج الذي يعقب بعض الانفعالات الشاقة (الحصر ، الخوف ، الذعر) يستمر لدى عدد غفير من الراشدين . وهذا ما يفسر لنا ان كثيرين من الافراد ينشدون احاسيس من هذا النوع ، بشرط أن تصحبها ظروف خاصة تسبغ عليها صفة

(٢٧) [ان تحليل بعض حالات اضطرابات المشي ورهاب الاماكن المكشوفة يشير الى الطبيعة الجنسية للذة الحركة . ومعلوم ان التربية الحديثة تستخدم الرياضة على نطاق واسع لتصرف الشبيبة عن النشاط الجنسي ؛ والأصح أن نقول إنها تستبدل المتعة الجنسية النوعية بالمتعة المتأتية عن الحركة ، وأنها تحكم على النشاط الجنسي بالنكوص الى احد مركّباته الايروسية الذاتية] (اضيف سنة ١٩١٠) .

اللاواقعية (مطالعات ، مسرح) وتخفف بالتالي من طابعها الشاق والمؤلم . ولو كان لنا ان نفترض ان الاحاسيس المؤلمة الشديدة تؤتي هي الاخرى مفاعيل شهوية ، وعلى الاخص إن لطفت من حدتها الظروف المصاحبة ، لجاز لنا ان نرى في هذه الواقعة النفسية مصدراً رئيسياً من مصادر الغريزة السادية ـ المازوخية ، ولتوضحت بالتالي بعض الشيء الطبيعة المعقدة والمتعددة لهذه الغريزة[٢٨] .

العمل الذهني ـ من الواضح اخيراً ان تركيز الانتباه على عمل ذهني وتوتر الفكر بوجه عام يترافقان لدى عدد غفير من الاحداث والراشدين بتهيج جنسي مصاحب ، وهذا يمكن ان يعد الاساس الوحيد للنظرية المشكوك فيها التي ترد الاضطرابات العصبية الى إرهاق فكري .

ان لخصنا الآن ما تفيدنا به مختلف الامثلة والمشاهدات ، التي لم تأخذ بعد طريقها الى النشر كاملة ، عن مصادر التهيج الجنسي الطفلي ، امكن لنا استخلاص السمات التالية أو على الاقل استشفاف خطوطها العريضة : إن أسباباً عديدة تسهم في تحريك السيرورة الجنسية ، وان تكن ماهيتها قد ازدادت إلغازاً وإبهاماً بالنسبة الينا . وتضطلع بذلك التنبيهات المباشرة للأسطح الحساسة (الاغشية وأعضاء الحواس) ، وبصورة فورية ومباشرة التنبيهات التي تطرأ على بعض المناطق التي يقال لها المناطق الشهوية . ونوعية التنبيه هي المهمة هنا ، وإن يكن عامل الشدة (فيما يتصل بالألم) ليس مما يهمل كل الاهمال . ولنضف الى ذلك ان العضوية تنطوي على استعدادات تجعل التهيج الجنسي يحدث كمفعول إضافي في عدد غفير من السيرورات الداخلية ، حالما تتجاوز شدة هذه السيرورات عتبة كمية معلومة . وما سميناه بالغرائز الجزئية للجنسية إما أن يُشتق مباشرة من هذه المصادر الداخلية ، وإما ان يمثل مفعولاً مركباً من هذه المصادر ذاتها ومن المناطق الشهوية . ولعل ما من حدث مهم يحدث في العضوية إلا ويكون له قسط في إثارة الغريزة الجنسية .

لا يبدو لي ممكناً في الوقت الراهن عرض هذه الاطروحة بمزيد من

(٢٨) [الاشارة هنا الى ما يسمى بالمازوخية « الشهوية »] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

الوضوح والدقة . وذلك للاسباب التالية : أولاً لأن وجهة النظر المعروضة هنا في جملتها جديدة كل الجدة ، وثانياً لأن طبيعة التهيج الجنسي لا تزال غير معروفة لنا على الاطلاق . غير أني سأبدي هنا ملاحظتين تفتحان على ما يتراءى لي رحيب الآفاق :

الاختلافات في الجبلات الجنسية ـ أ ـ رأينا من قبل امكانية رد تنوعات الجبلات الجنسية الخِلقية الى اختلافات في نمو المناطق الشهوية . وبوسعنا الآن القيام بشيء مماثل بأن نأخذ في اعتبارنا المصادر اللامباشرة للتهيج الجنسي . فمن المباح لنا أن نفترض ان هذه المصادر تغذي لدى جميع الافراد تيارات ، وان هذه التيارات ليست متعادلة القوة لديهم جميعاً ، وان غلبة تيار أو آخر منها يفسر الاختلافات في الجبلات الجنسية للافراد[٢٩] .

طرق التأثير المتبادلة ـ ب ـ لنترك الآن الصورة المجازية التي اخذنا بها طويلاً في معرض كلامنا عن « مصادر » التهيج الجنسي ، ولنلجأ الى صورة اخرى بافتراضنا وجود طرق تقود من وظيفة غير جنسية الى وظيفة جنسية ويمكن سلوكها في كلا الاتجاهين معاً . فإن يكن وقوع منطقة الشفتين ، مثلاً ، بين كلتا الوظيفتين يفسر حصول الاشباع الجنسي عند تناول الطعام ، فإن ذلك يساعدنا على ان نفهم لماذا تظهر اضطرابات فقدان الشهية حينما تختل الوظائف الشهوية للمنطقة المشتركة . وبما اننا نعلم ان تركيز الانتباه يمكن ان يولِّد اثارة جنسية ، فبوسعنا الافتراض ان حالة الاثارة الجنسية تؤثر في استخدام الانتباه المتاح بسلوكها الطريق نفسه ولكن بالاتجاه المعاكس . وان شطراً كبيراً من أعراض الاعصبة التي أرجعتها الى اضطرابات جنسية يتبدى في

(٢٩) [النتيجة التي يتعين لا محالة استخلاصها من العرض الآنف هي ان كل فرد لا بد ان تكون عنده ايروسية فموية وايروسية شرجية وايروسية احليلية ، الخ ، وان ملاحظة وجود عقد نفسية مناظرة لهذه الاشكال من الايروسية لا تعني وجوب الحكم بالشذوذ او العصاب . فالاختلافات التي تفصل السوي عن اللاسوي لا يمكن إلا ان تكون محصورة بالشدة النسبية لمختلف مركّبات الغريزة الجنسية وبالدور الذي يعود الى هذه الاختلافات في نمو الاسوياء واللااسوياء] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

اضطرابات تطرأ على الوظائف الفيزيولوجية ولا تتسم بأي طابع جنسي . وتأثير الجنسية هذا ، الذي بقي الى يومنا هذا بلا تفسير ، يتجرد بعض الشيء من طابعه الملغز حينما نرى فيه نقيضاً مقابلاً للمؤثرات الناظمة لسيرورة التهيج الجنسي .

ان الطرق عينها التي ينعكس بها أثر الاضطرابات الجنسية على الوظائف البدنية الاخرى يتعين ان تؤدي لدى الفرد السـوي نشاطاً مهماً آخـر . فهذه الطرق هي التي يسلكها انجذاب الغرائز الجنسية نحو أهداف غير جنسية ، أي تصعيد الجنسية . لكن لا معدى لنا عن الاقرار ، ختاماً ، بأننا لا نعرف بعد معرفة يقينية الا النزر اليسير عن هذه الطرق ، المؤكد وجودها مع ذلك والممكن سلوكها ، في أرجح الظن ، في كلا الاتجاهين .

المبحث الثالث

تحولات البلوغ

مع بداية البلوغ تظهر تحولات تقود الحياة الجنسية الطفلية الى صورتها النهائية والسوية . فقد كانت الغريزة الجنسية حتى الآن ايروسية ذاتية في جوهرها ، اما من الآن فصاعداً فستكتشف الموضوع الجنسي . وقد كانت تصدر عن غرائز جزئية وعن مناطق شهوية تبحث ، مستقلة عن بعضها بعضاً ، عن قدر من اللذة باعتباره الهدف الوحيد للجنسية . اما الآن فيظهر هدف جنسي جديد ، تتضافر على تحقيقه جميع الغرائز الجزئية ؛ بينما تخضع المناطق الشهوية لزعامة المنطقة التناسلية[١] . وبما ان الهدف الجنسي الجديد يعيّن لكلا الجنسين وظائف مختلفة غاية الاختلاف ، فإن التطور الجنسي لكل منهما يسير في مسالك متباينة أشد التباين . فتطور الرجل ادنى الى المنطق وأسهل تأويلاً ، بينما يحدث لدى المرأة نوع من النكوص . ويتأمن الطابع السوي للحياة الجنسية بالتقاء تيارين : تيار الحنو وتيار الشهوانية في توجههما نحو الموضوع والهدف الجنسيين . [وأول هذين التيارين يحتوي في ذاته ما تبقى من التفتح الأول للجنسية الطفلية] (اضيف سنة ١٩٢٠) . ويكون الأمر أشبه بحفر نفق من جانبين .

يتمثل الهدف الجنسي لدى الرجل في قذف منتجات العضو التناسلي .

(١) [ان العرض الاجمالي الذي نقدمه هنا يرمي في المقام الاول الى إبراز الفروق . وقد كنا أوضحنا آنفاً مدى اقتراب الجنسية الطفلية من التنظيم الجنسي النهائي بحكم اختيار الموضوع وتطور المرحلة القضيبية] (اضيف سنة ١٩١٥) .

والهدف الجديد ليس غريباً عن الهدف القديم الذي كان ينشد اللذة ، بل على العكس يشبهه من حيث أن الحد الاقصى من اللذة يرتبط بالفعل النهائي للسيرورة الجنسية . فالغريزة الجنسية تضع نفسها في خدمة وظيفة التناسل ، فتغدو ان صح التعبير غيرية . وحتى نفهم امكانية نجاح هذا التحول ، فلا بد ان نأخذ في حسابنا الاستعدادات الاصلية وخصائص الغرائز .

وكما في جميع الحالات التي تتخلق فيها في العضوية تراكيب جديدة وعلاقات جديدة برسم أوالية معقدة، فقد تنشأ اضطرابات إن عُطلت هذه السيرورة . وجميع الاضطرابات المرضية التي تطرأ على الحياة الجنسية يمكن أن تُعد ، بحق ، ناجمة عن ضروب من الكف في مسار النمو .

١ - اولوية المناطق التناسلية واللذة التمهيدية

ان بداية المسار الذي وصفناه وهدفه النهائي يتبديان لنا بوضوح . أما الاطوار الوسطى فما زالت غامضة علينا في أكثرها . ولا مناص لنا من ان ندعها على إلغازها من أكثر من ناحية .

لقد وقع الاختيار ، لتحديد سمات سيرورة البلوغ ، على أظهر القرائن وألفتها للنظر ، أعني تطور الجهاز التناسلي الخارجي الذي يتطابق توقفه النسبي عن النمو مع مرحلة الكمون الجنسي الطفلي . وفي الوقت نفسه يكون تطور الاعضاء التناسلية الداخلية قد أنضج المنتجات التناسلية وهيأ لها القدرة على تشكيل كائن حي جديد . هكذا يكون جهاز بالغ التعقيد قد تكوّن وأمسى صالحاً للاستعمال . ومن الممكن تشغيل هذا الجهاز عن طريق تنبيهات ، والمشاهدة تدلنا على كيفيات ثلاث مختلفة لتولُّد التنبيهات . فهي إما أن تأتي من العالم الخارجي بطريق الإثارة المألوفة للمناطق الشهوية ؛ وإما أن تنشأ من داخل العضوية بطرق ما زال يتعين استكشافها ؛ وإما ان تنطلق اخيراً من الحياة النفسية التي هي بمثابة مستودع من الانطباعات الخارجية ومحطة استقبال للتنبيهات الداخلية . وتحدد هذه الأواليات الثلاث حالة نسميها بـ « التهيج الجنسي » . وتفصح

هذه الحالة عن نفسها بنوعين من الأعراض : نفسية وبدنية . وتتجلى الاعراض النفسية في حالة من التوتر ، ذات طابع شديد الإلحاح . اما الاعراض البدنية العديدة فنخص منها بالذكر في المقام الاول سلسلة من التغيرات التي تطرأ على الجهاز التناسلي والتي تدل دلالة لا ريب فيها على التهيؤ للفعل الجنسي (انتصاب العضو الذكر والافراز المهبلي) .

التوتر الجنسي - ان الطابع التوتري للتهيج الجنسي يحملنا على طرح مشكلة حلها صعب بقدر ما هو مهم لفهم السيرورات الجنسية . وإني لأصر على ان الشعور بالتوتر له على الدوام طابع مؤلم ، مهما اختلفت الآراء في علم النفس الحديث بصدد هذا الموضوع . وان ما يحملني على الاخذ بذلك كون هذا الشعور ينطوي على حاجة الى تغيير الموقف السيكولوجي ، وهو أمر غريب مطلق الغربة عن اللذة . لكن ما ان نصنف التوتر الناجم عن التهيج الجنسي في عداد المشاعر المؤلمة ، حتى نصطدم بواقع أن هذا التوتر يخبره الفرد في صورة شعور باللذة لا ريب فيه . والسيرورات الجنسية ترتفق جميعها ، وعلى الدوام ، بتوتر ولذة ؛ وحتى التغيرات التمهيدية التي تطرأ على الجهاز التناسلي تنم عن نوع من الاشباع . يبقى أن نعلم ، والحال هذه ، كيف يمكن للتوتر ، الذي له طابع مؤلم ، وللشعور باللذة ان يتوافقا .

ان كل ما يتصل بمشكلة اللذة والألم يمسّ واحدة من النقاط الحساسة في علم النفس الحديث . وسنكتفي بأن نستخلص من هذه الدراسة المعلومات التي يمكن أن تزودنا بها ، وسنتحاشى ان نتصدى للمشكلة في جملتها[٢] . ولنبدأ بإلقاء نظرة على الطريقة التي تتكيف بها المناطق الشهوية مع النظام الجديد . فإن دوراً هاماً يعود اليها في الطور الاولي من التهيج الجنسي .

ان العين ، التي هي أبعد المناطق الشهوية عن الموضوع الجنسي ، تؤدي دوراً فائق الاهمية في الشروط التي سيتم فيها الاستحواذ على هذا

(٢) [انظر محاولتي لحل هذه المشكلة في الملاحظات التي مهدت بها لمقالي عن **المشكلة الاقتصادية للمازوخية**] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

الموضوع ، إذ هي العضو الناقل للنوعية الخاصة من الاثارة التي يمدنا بها حس الجمال . ونحن نصف خواص الموضوع الجنسي بأنها «فاتنة» . وهذه الفتنة تسبّب من جهة اولى لذة ؛ وتؤدي ، من الجهة الثانية ، الى زيادة في التهيج الجنسي أو تستثيره اذا لم يكن قد وجد بعد . واذا ما انضاف الى هذا التهيج الاول تهيج ثان ، صادر عن منطقة شهوية مختلفة ، كالملامسة باليد مثلاً ، بقي المفعولُ واحداً : شعور باللذة سرعان ما تعززه لذة جديدة ، ناشئة عن التغيرات التمهيدية ، وزيادة في التوتر الجنسي سرعان ما تتلبس طابعاً واضحاً للغاية من الألم اذا حيل بينها وبين الوصول الى اللذة اللاحقة . ولربما بدت الحالة أوضح بعد حين تستثار بالملامسة ، لدى شخص غير منفعل جنسياً ، منطقة شهوية خاصة (بشرة الثدي لدى المرأة مثلاً) . فهذه الملامسة تكفي لاستثارة شعور باللذة ، كما انها أقدر من أي شيء آخر على توليد التهيج الجنسي الذي يستدعي بدوره مزيداً من اللذة . أما كيف يطلب المرء ، الذي يحس باللذة ، لذة أعظم ، فتلك هي المشكلة .

اوالية اللذة التمهيدية ـ ان الدور الذي يقع على المناطق الشهوية واضح في الحالة التي ذكرنا . وما يصدق على إحدى هذه المناطق يصدق على الباقيات . فهي جميعاً تفيد ، إثر إثارة ملائمة ، في خلق مقدار من اللذة يكون بمثابة منطلق لزيادة التوتر ، وهذا التوتر مسؤول بدوره عن تقديم الطاقة المحركة اللازمة لإتمام الفعل الجنسي . والمرحلة ما قبل الأخيرة في هذا الفعل تتمثل بإثارة ملائمة لمنطقة شهوية ، وهي المنطقة التناسلية ذاتها المتوضّعة في حشفة القضيب ، عن طريق أصلح موضوع لهذا الغرض ، وهو الغشاء المخاطي المهبلي ؛ واللذة التي تتأتى عن هذه الاثارة تولّد ، بطريق الفعل المنعكس هذه المرة ، الطاقة المحركة التي تتحكم بقذف المنتجات التناسلية . وهذه اللذة النهائية ، التي تصل الى الذروة بشدتها ، تختلف بأواليتها عن ضروب اللذة السابقة لها . فهي تنتج برمتها عن تفريج ؛ أي هي لذة ترتكز الى الاشباع ،ومعها يختفي لأجل من الزمن توتر الليبيدو .

يبدو لي أنه من المسوغ تثبيت هذا الفرق بين اللذة الناشئة عن المناطق

الشهوية واللذة المتأتية عن إفراغ المنتجات التناسلية باستخدام مصطلحات مختلفة في تسميتهما . فأولى هاتين اللذتين يمكن ان تسمى **باللذة التمهيدية** ، بالتعارض مع **اللذة النهائية** . واللذة التمهيدية هي عينها تلك التي يمكن ان تفضي اليها الغرائز الجنسية الطفلية ، وإن على نحو بالغ البدائية . أما الشيء الجديد في ظهوره فهو اللذة النهائية التي ترتبط بالتالي ، في أرجح التقدير ، بشروط معينة لا تتوفر إلا مع البلوغ . ومن الممكن تلخيص صيغة الوظيفة الجديدة للمناطق الشهوية على النحو التالي : فهذه المناطق تفيد ، عن طريق اللذة التمهيدية التي يتم الحصول عليها كما في اثناء الطفولة ، في انتاج اللذة الإشباعية التي تمثل الدرجة العليا .

وقد فسرت مؤخراً ، بالاستناد الى مثال آخر استقيته من مضمار سيكولوجي مغاير تماماً ، حالة مماثلة امكن فيها الوصول الى لذة عليا عن طريق شعور باللذة أقل شدة يؤدي ، بنوع ما ، دور العلاوة التشجيعية . وقد استعنت بهذا المثال لأحلل بمزيد من التمعن ماهية اللذة[٣] .

اخطار اللذة التمهيدية ـ ان العلاقة التي قلنا بوجودها بين اللذة التمهيدية وحياة الطفل الجنسية يؤيدها الدور الإمراضي الذي قد تؤديه هذه اللذة . فالأوالية التي تنتظم فيها اللذة التمهيدية تنطوي بجلاء على خطر محدد ؛ وهذا الخطر ، الذي يتهدد الإتمام السوي للفعل الجنسي ، قد يظهر حالما تصبح اللذة التمهيدية ، في مرحلة من مراحل العملية الجنسية التحضيرية ، أكبر مما ينبغي ، على حين يبقى نصيب التوتر أصغر مما ينبغي . وفي هذه الحالة تخور قوة الغريزة ، فلا يعود في المستطاع مواصلة العملية الجنسية ، ويقصر الشوط المطلوب قطعه ، ويحل العمل التحضيري محل الهدف السوي للجنسية . وبحسب ما تدلنا الخبرة ، فإن المغزى الذي ينطوي عليه ذلك هو أن المنطقة الشهوية

(٣) انظر البحث الذي نشرته سنة ١٩٠٥ وجعلت عنوانه : **النكتة وعلاقتها باللاشعور** . فالمرء يستبق اللذة بالنكتة ، وهذه اللذة المستبقة تفتح بدورها الطريق امام لذة اعظم ، إذ ترفع بعض ضروب الكف الداخلي .

المعنية ، وبالتالي الغريزة الجزئية المناظرة لها ، قد أسهمت في ابان الحياة الطفلية بقسط مجاوز الحد في إنتاج اللذة . فإن تدخلت فيما بعد ظروف تنزع الى استحداث تثبيت ، ظهر في طور لاحق من الحياة دافع قهري يعترض سبيل اندماج اللذة التمهيدية بالاوالية الجديدة . وبالفعل ، ان انحرافات عديدة تتميز بمثل هذا التوقف عند الافعال التحضيرية .

ومن الممكن تفادي هذا الاجهاض للاوالية الجنسية بسبب اللذة التمهيدية بسهولة أكبر فيما اذا كانت اولوية المنطقة التناسلية قد تحددت معالمها في اثناء الطفولة . ويبدو ان جميع الاستعدادات تتخذ لهذا الغرض في مجرى الطفولة الثانية (من السنة الثامنة الى البلوغ) . ففي إبان هذه السنوات تسلك المناطق التناسلية شبيه سلوكها في زمن النضج . فتصير محلاً لتنبيهات ولتغيرات تحضيرية كلما حدث إحساس باللذة ناشيء عن إشباع منطقة شهوية ما ، رغم عدم ارتباط ذلك بأي غائية بعد ، أي رغم عدم مساهمته على الاطلاق في مواصلة السيرورة الجنسية . على هذا النحو يتكون في اثناء الطفولة ، والى جانب لذة الاشباع ، قدر من التوتر الجنسي ، وان يكن أقل ثباتاً ، وأوهن شدة . وبوسعنا الآن ان نفهم لماذا كنا محقين عندما قلنا ، في معرض نقاشنا مصادر الجنسية ، ان السيرورة التي نحن بصددها تفعل فعلها باتجاه الإشباع الجنسي كما باتجاه الاثارة الجنسية على حد سواء . وهذا يبين لنا أننا بالغنا في بادىء الأمر بالفارق بين الحياة الجنسية الطفلية والحياة الجنسية الراشدة، وهانحنذا نستدرك ونأتي بالتصويب الضروري . فالتظاهرات الطفلية للجنسية لا تحدد الانحرافات فحسب ، بل كذلك التشكيلات السوية للحياة الجنسية عند الراشدين .

٢ ـ مشكلة التهيج الجنسي

لم نفسر الى الآن من أين يأتي التوتر الجنسي الذي يصاحب اللذة عند اشباع المناطق الشهوية ، وماذا يمكن ان تكون طبيعته . وأول فرض يمثل للذهن أن هذا التوتر ناجم على نحو ما عن اللذة عينها . على أنه من المحال القبول به لأنه لا يظهر أي توتر على الاطلاق ، بل ان كل أثر للتوتر يزول عند بلوغ اللذة العظمى المرتبطة بإفراغ المنتجات التناسلية . وهذا يسلمنا الى

الافتراض بأن اللذة والتوتر الجنسي لا يرتبطان فيما بينهما إلا بصورة غير مباشرة(٤) .

دور المنتجات الجنسية ـ علاوة على أن إفراغ المنتجات التناسلية يضع في العادة حداً للتهيج الجنسي ، فثمة قرائن اخرى تبيح لنا ان نقيم صلة بين التوتر والمنتجات التناسلية . ففي حالة من يحيا حياة عفيفة ، يفرّج الجهاز التناسلي عن نفسه على فترات متفاوتة لا تخلو من انتظام ؛ ففي الليل يحدث تفريغ مصحوب بإحساس من اللذة في اثناء هلوسة الحلم التي تمثل فعلاً جنسياً ؛ وإننا لنميل في تفسير هذه السيرورة ـ الاحتلام الليلي ـ الى الاعتقاد بأن التوتر الجنسي ، الذي يفلح في سلوك طريق الهلوسة المختصر بديلاً عن الفعل ، يحدث بنتيجة تراكم المني في خزانات المنتجات التناسلية . والتجارب التي يمكن ان تجرى على اهتلاك الاوالية الجنسية تمدنا بمؤشرات تعضد الاعتقاد نفسه . فحين تستنفد المدخرات المنوية لا يغدو إنجاز الفعل الجنسي مستحيلاً فحسب ، بل تنعدم ايضاً قابلية المناطق الشهوية للإثارة . وحتى لو اثيرت هذه المناطق بوسائل ملائمة ، امتنعت عن انتاج لذة . وهكذا يتأكد لنا عرضاً ان درجة محددة من التوتر الجنسي ضرورية كيما تدخل المناطق الشهوية في طور التهيج .

قد ينساق المرء هنا الى الاخذ بافتراض يلقى ـ ان لم أكن مخطئاً ـ قبولاً عاماً ، ومؤداه أن تراكم المنتجات التناسلية هو الذي يخلق التوتر ويرعاه : وربما تكون الظاهرة ناشئة ، والحالة هذه ، عن ضغط هذه المنتجات على جدران خزاناتها ، هذا الضغط الذي يفعل فعله كمنبه لمركز نخاعي ، وتنبيهه هذا يُدرك بدوره من قبل المراكز العليا ، فيظهر الاحساس بالتوتر بالتالي في المجال الشعوري. وأما أن تهيج المناطق الشهوية يؤدي الى زيادة التوتر الجنسي فهذه واقعة لا سبيل الى

(٤) لا يخلو الأمر من فائدة ان نلاحظ ان لفظ « LUST» (اللذة بالالمانية) ينم عن الدور المزدوج الذي تؤديه الاثارات الجنسية إذ تنطوي ، من جهة أولى ، على إشباع جزئي ، وتسهم من الجهة الثانية ، في توليد التوتر الجنسي . فلفظة LUST ذات معنيين . فهي تدل على احساس التوتر الجنسي وعلى الرغبة (فمعنى ICHHABELUST) هو « اريد شيئاً ، اشتهي شيئاً » ، كما تدل على الشعور بالاشباع .

تفسيرها في هذه الحال ما لم نسلم بأن هذه المناطق الشهوية ترتبط بالمراكز بروابط تشريحية سابقة الوجود ، وبأنها تزيد في هذه المراكز من قوة التنبيه ، وبأن التوتر اخيراً يستثير الفعل الجنسي اذا بلغ درجة كافية ، واذا لم يبلغها حض على انتاج منتجات تناسلية .

ان نقطة ضعف هذه النظرية ، التي اخذ بها كرافت ـ ايبنغ مثلاً في وصفه للسيرورة الجنسية ، تكمن في ما يلي : فلأنها لا تأخذ بعين الاعتبار سوى النشاط الجنسي لدى الراشد حصراً ، تهمل الى حد كبير ثلاث احوال من الوظائف كان يفترض بها ان تفسرها : لدى الطفل ولدى المرأة ولدى المخصي الذكر . ففي هذه الحالات الثلاث لا مجال للكلام عن تراكم للمنتجات التناسلية ، مما يجعل من العسير تطبيق النظرية بتمامها . ولكن لنعترف مع ذلك بأن ثمة بعض شهادات تفسح مجالاً حتى لشمل هذه الحالات بالنظرية المذكورة . على أنه يبقى علينا ان نحاذر من تحميل جملة العوامل التي محّصناها دوراً لا تبدو لي أهلاً للاضطلاع به .

اهمية الجهاز الجنسي الداخلي ـ إن ما يثبت ان التهيج الجنسي مستقل الى حد لا يستهان به عن تشكيل المنتجات التناسلية التجارب التي اجريت على المخصيين الذكور الذين يحافظون احياناً على الليبيدو كاملاً غير منقوص رغم عملية خصائهم (علماً بأن النتيجة المعاكسة ، التي هي هدف العملية بالذات ، يتم ادراكها بصفة عامة) . [ومن المعلوم منذ أمد بعيد ، فضلاً عن ذلك ، ان الأمراض التي تعطل انتاج الغدد التناسلية لدى الرجل لا تمس الليبيدو والقوة الجنسية لدى الفرد الذي صار عقيماً] (اضيف سنة ١٩٢٠) . فلا عجب إذن ، خلافاً لما يبدو لريجر RIEGER ، ألا يؤثر فقدان الغدد المفرزة للمني عند التقدم في السن في الموقف النفسي للفرد . صحيح ان الخصاء اذا تم في سن مبكرة قبل البلوغ ، ادى الى انتفاء الصفات الجنسية الى حد ما ؛ لكن ليس من المستبعد حتى في هذه الحال ان تكون المسألة ، بالاضافة الى فقدان الغدد التناسلية ، مسألة تعطل في النمو متصل بهذا الفقدان .

[**النظرية الكيميائية** ـ ان تجارب استئصال الغدد التناسلية

(المبيض والخصيتين) لدى الحيوان ، وزرع أعضاء مماثلة جديدة لدى الفقاريات(٥) ، قد سلطت أخيراً ضوءاً على أصل التهيج الجنسي وقللت في الوقت نفسه من الاهمية التي يمكن ان تعزى الى تراكم المنتجات الخلوية التناسلية فقد امكن تجريبياً (إ.شتايناخ) تغيير الذكر الى انثى والانثى الى ذكر ، مما استتبع تبدلاً في مسلك الحيوان موافقاً للسمات الجنسية البدنية ومتواقتاً مع تغيرها . بيد أن هذا التأثير المحدِّد للجنس لا يمكن عزوه الى ذلك الجزء من الغدة التناسلية الذي ينتج الخلايا النوعية (الحوين المنوي والبييضة) ، بل يرتد الى النسيج البيني الذي يسميه لهذا السبب المؤلفون الذين تقدم ذكرهم بـ « غدة البلوغ » . ومن الممكن ان تتمخض البحوث اللاحقة عن نتيجة تحملنا على التسليم بأن « غدة البلوغ » هي في الحالة السوية خنثوية ، وبذلك يتوفر أساس تشريحي للحياة الجنسية الثنائية لدى الحيوانات العليا ؛ ومن المرجح من الآن أن هذه الغدة ليست العضو الوحيد الذي يؤدي دوراً في إحداث التهيج الجنسي . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الكشف البيولوجي الجديد يتمشى مع ما نعرفه من قبل عن دور الجسم الدرقي في الجنسية ، ونحن في حل الآن من الاعتقاد بأن الجزء البيني من الغدد التناسلية ينتج مواد كيماوية خاصة تحملها الدورة الدموية فتنقل بعض أجزاء الجهاز العصبي المركزي الى حالة من التوتر الجنسي . ونحن نعرف من قبل حالة تتحول فيها إثارة ناشئة عن ذيفانات خارجية المصدر الى إثارة عضوية من نوع معين . ولا سبيل في الوقت الحاضر لأن ندرس ، ولو في شكل فروض ، كيف ينشأ التهيج الجنسي عن تنبيه المناطق الشهوية المسبوق بتوتر في الجهاز المركزي ، وما مضاعفات التنبيهات السمية والفيزيولوجية الخالصة التي تنجم عن هذه العمليات . وحسبنا هنا ان نستخلص من مثل هذا التصور فكرة تولّد مواد معينة من نوع خاص عن الأيض الجنسي] (عدل سنة ١٩٢٠) . ذلك ان هذه النظرية ، التي قد تبدو للوهلة الاولى تعسفية ، ترتكز الى واقعة عظيمة الاهمية . فما يمكن

(٥) انظر مؤلّف ليبشوتز الآنف الذكر ، ص ١٣

إرجاعه من الأعصبة الى اضطرابات الحياة الجنسية ينم عن شبه سريري عظيم بظاهرات التسمم وبحالة الحاجة التي يولّدها التناول المألوف لبعض السموم (القلويات) المولّدة للذة .

٣ - [نظرية الليبيدو

ان الفرضية القائلة ان للتهيج الجنسي أساساً كيمياوياً تتفق على اكمل وجه مع التصورات التي كوّنّاها لأنفسنا لنستعين بها على فهم التظاهرات النفسية للحياة الجنسية والسيطرة عليها . وقد اخذنا بمفهوم **لليبيدو** يجعل منه قوة متغيرة كمياً تتيح لنا أن نقيس السيرورات والتغيرات في مجال التهيج الجنسي . ونحن نميز الليبيدو من الطاقة التي ينبغي ان نفترض وجودها في أساس جميع السيرورات النفسية بوجه عام ، والتمييز الذي نجريه يطابق أصول الليبيدو الخاصة ، إذ نعزو الى هذا الاخير ، فضلاً عن طابعه الكمي ، طابعاً كيفياً . وحين نميز بين طاقة الليبيدو وبين كل طاقة نفسية اخرى ، نفترض ان السيرورات الجنسية في العضوية تتميز عن وظائف التغذية بكيمياوية خاصة . وقد بيّن لنا تحليل الانحرافات والاعصبة النفسية ان هذا التهيج الجنسي لا ينبع فقط من الاجزاء التي تسمى بالتناسلية ، بل كذلك من سائر الاعضاء . وبذلك ننتهي الى تصور كم ليبيدوي نسمي ممثله النفسي **ليبيدو الأنا** ، وانتاج هذا الليبيدو وزيادته ونقصانه وتوزيعه ونقلاته هي التي يفترض بها ان تمدنا بوسائل تفسير الظاهرات الجنسية النفسية .

غير ان ليبيدو الأنا لا يقع في متناول التحليل إلا متى استحوذ على مواضيع جنسية ، فصار **ليبيدو الموضوع** ، عندئذ نراه يتركز على المواضيع ، يتثبت عليها او يهجرها الى غيرها ، ويتحكم من المواقع التي استولى عليها بالنشاط الجنسي للافراد ، ويقوده في خاتمة المطاف الى الاشباع ، أي الى انطفاء جزئي ومؤقت لليبيدو . ويتيح لنا التحليل النفسي لما درجنا على تسميته بالاعصبة التحويلية (الهستيريا والعصاب الوسواسي) الوصول الى حدوس يقينية بصدد هذه النقطة .

أما فيما يتصل بالليبيدو الموضوعي ، فيتبين لنا أنه ان انفصل عن

مواضيعه بقي معلقاً في حالة خاصة من التوتر ، ثم لا يعتم في نهاية المطاف ان يرتد الى الأنا ليعود ثانية ليبيدواً أنوياً . ونحن نطلق أيضاً على الليبيدو الانوي ، بالتعارض مع الليبيدو الموضوعاني ، اسم الليبيدو **النرجسي** . ويتيح لنا التحليل النفسي ان نلقي نظرة على منطقة لا يباح لنا تجاوز حد معين في ارتيادها ، هي منطقة الليبيدو النرجسي ، وان نكوّن فكرة عن العلاقات بين نوعي الليبيدو[٦] . ويبدو لنا الليبيدو الانوي ، أو النرجسي ،أنه الخزان الكبير الذي منه تنطلق التوظيفات الموضوعانية واليه ترتد ثانية ؛ كما يبدو لنا التوظيف الليبيدوي الانوي أنه هو الحالة الاصلية المتحققة في الطفولة الأولى ، وهي حالة لا تلبث ان تخفى عن النظر لاحقاً حتى ما توجه الليبيدو نحو الخارج ، ولكنها تبقى على ما هي عليه في الواقع .

ان نظرية في الليبيدو تدّعي تفسير الاضطرابات العصابية والذهانية يفترض فيها ان تعبر عن جميع الظاهرات الملحوظة وعن السيرورات التي يمكن استنباطها منها بالمفردات التي يزودنا بها تحليل تنظيم الليبيدو بالذات . ويسير علينا ان نفترض أن تحولات الليبيدو الأنوي ستكون بالغة الاهمية ، وعلى الاخص حيثما يكون المطلوب تفسير اضطرابات عميقة من طبيعة ذهانية . والصعوبة التي تواجهنا هنا أن التحليل النفسي يزودنا حالياً بمعطيات يقينية حول تحولات الليبيدو الموضوعي[٧] ، بينما لم تتوفر له القدرة بعد على تمييز الليبيدو الأنوي تمييزاً جلياً عن سائر الطاقات التي تعمل في الأنا[٨]] (أضيف سنة ١٩١٥) . [لهذا لا يمكننا في الوقت الحاضر ان نتابع نظرية في الليبيدو إلا عن طريق المنهج التأملي . غير أننا نضحي بكل ما أكسبتنا اياه المشاهدات التحليلية النفسية حتى الآن إن

---

(٦) | فقد هذا التقييد ما كان له من قيمة بعد ما امكن إخضاع أعصبة اخرى غير « الاعصبة التحويلية » للتحليل النفسي] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

(٧) | انظر الهامش السابق] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

(٨) | انظر مقالي : **من اجل إدخال النرجسية** ، ١٩٢٤] (اضيف سنة ١٩١٥) . [وقد عزوت خطأ في هذا المقال مصطلح « النرجسية » الى ناكه NAECKE ، مع ان هـ . . اليس هو الذي ابتدعه] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

طمسنا مع ك . غ . يونغ معالم مفهوم الليبيدو ، فرأينا فيه معادلاً للطاقة النفسية بوجه عام .

ان تمييز الغرائز الجنسية عن سواها من الغرائز ، وقصر مفهوم الليبيدو على الغرائز الجنسية ، يجدان أقوى سند لهما في الفرض الذي صغناه فيما تقدم حول وجود كيمياوية خاصة للوظيفة الجنسية] (أضيف سنة ١٩٢٠) .

٤ ـ تمايز الجنسين

معلوم أن التمـيز القاطع بين سمات الذكورة والانوثة لا يظهر إلا في طور البلوغ ، وهو تضاد يؤثر فيما بعد اكثر من أي سواه تأثيراً فاصلاً في مجرى الحياة . والحق ان الاستعدادات الـذكريـة والأنثية تفصح عن وجودها في عهد الطفولة بالذات.وإن ضروب الكف الجنسي(الحياء، القرف ، الشفقة) تنمو في عمر مبكر لدى البنات الصغيرات وتواجه لديهن مقاومة أدنى مما لدى الصبيان الصغار . ويبدو ان الميل الى الكبت الجنسي يضطلع لدى البنات ايضاً بدور اكبر ، وحين تتظاهر لديهن الغرائز الجنسية الجزئية تتلبس ايثاراً الشكل السلبي . غير ان النشاط الايروسي الذاتي للمناطق الشهوية واحد لدى الجنسين ، وهذا يحول دون ظهور الفارق الجنسي في سني الطفولة بالوضوح الذي يظهر عليه عقب البلوغ . وان اخذنا بعين الاعتبار التظاهرات الايروسية الذاتية والاستمنائية ، جاز لنا ان نتقدم بأطروحة مفادها ان جنسية البنات الصغيرات ذات طابع ذكري في أساسها . بل نستطيع ، فيما لو جعلنا لمفهومي الذكورة والانوثة مضموناً اكثر تحديداً ، ان نؤكد ان الليبيدو هو على الدوام وباطراد من ماهية ذكرية ، وأنه يظهر لدى الرجل ولدى المرأة على السواء ، وبغض النظر عن موضوعه ، أرجلاً كان او امرأة .[٩] .

(٩) [لا بد من التنبه الى ان مفهومي « المذكر » و « المؤنث » ، اللذين لا يحيط بهما ظل من شك في نظر عامة الناس ، هما من أشد المفاهيم تعقيداً من وجهة النظر العلمية . فهذان اللفظان يستعملان **بثلاثة** معانٍ مختلفة . فـ «المذكر» و « المؤنث » يمكن ان يعنيا « الايجاب » و « السلب » ، وقد يؤخذان ايضاً بالمعنى **البيولوجي** ، أو اخيراً بالمعنى =

ومنذ اطلعت على نظرية الجنسية الثنائية ، علقت اهمية كبرى على هذا العامل ، وفي رأيي أنه من المتعذر تأويل التظاهرات الجنسية لدى الرجل والمرأة ان لم يؤخذ هذا العامل بعين الاعتبار .

المناطق الشهوية الرائدة لدى الرجل ولدى المرأة ـ لنضف الى ما تقدم ايضاً ان المنطقة الشهوية الرائدة تتركز لدى البنت الصغيرة في البظر ، الذي هو معادل المنطقة التناسلية الذكرية المتركزة في الحشفة . وكل ما تسنى لي أن أعلمه من خبرتي عن استمناء البنات الصغيرات اكد لي أهمية البظر وأسبقيته على سائر الاجزاء التناسلية الخارجية التي لن تضطلع بدور حاسم في الحياة الجنسية إلا فيما بعد . بل إني لأشك في أن يكون في المستطاع سوق البنت الصغيرة ، بتأثير الإغواء ، الى شيء آخر غير الاستمناء البظري ، إلا في أحوال استثنائية . والتظاهرات الجنسية العفوية التي غالباً ما نلتقيها لدى البنات الصغيرات تأخذ شكل تقلصات تشنجية في البظر ، وانتصابات هذا العضو المتكررة قمينة بتنويرهن بصدد

السوسيولوجي . ويتوقف التحليل النفسي في المقام الاول عند أول هذه المعاني. وبهذا المعنى نعتنا الليبيدو لتونا بأنه «ذكري». وبالفعل ، ان الغريزة موجبة دوماً ، حتى وان يكن هدفها سلبياً . وأوضح ما يكون معنى « المذكر » و « المؤنث » عندما يحمل هذا اللفظان على معناهما البيولوجي . ففي هذه الحال يشير لفظا « المذكر » و « المؤنث » الى وجود غدد منوية أو غدد بييضية، مع ما يشتق منهما من وظائف مختلفة ، لدى الفرد . وفي العادة يربط العنصر « الموجب » وتظاهراته الثانوية ، كالنمو العضلي الواضح والسلوك العدواني والليبيدو الاعظم شدة ، بالعنصر « المذكر » مأخوذا بمعناه البيولوجي ، لكن ليس من المحتم أن يكون الأمر كذلك . ففي عدد من الانواع الحيوانية نشاهد ، بالفعل ، ان الصفات المشار اليها تعود الى الاناث .

أما المعنى السوسيولوجي الذي نعزوه الى لفظي « المذكر » و « المؤنث » فمبني على أساس مشاهداتنا اليومية لسلوك الافراد من كلا الجنسين . فهذه المشاهدات تثبت لنا أن وجود صفات احد الجنسين لدى فرد بعينه لا يتنافى ووجود صفات من الجنس الآخر ، إن من وجهة النظر البيولوجية وان من وجهة النظر السيكولوجية . وبالفعل ، يتسم كل كائن انساني ، من وجهة النظر البيولوجية، بمزيج من الصفات العائدة الى جنسه ومن الصفات العائدة الى الجنس الآخر ، وكذلك بمزيج من العناصر الموجبة والسالبة ، سواء اتفقت هذه العناصر النفسية مع الصفات البيولجية أو لم تتفق] (اضيف سنة ١٩١٥) .

التظاهرات الجنسية للجنس الآخر ، إذ تتيح لهن ان يترجمن الى احاسيسهن الذاتة ما يشعر به الصبي الصغير .

ان شئنا أن نفهم التطور الذي يحيل البنت الصغيرة امرأة ، فلا بد لنا من تتبع الاطوار المختلفة التي يمر بها التهيج البظري . فالبلوغ ، الذي يحمل معه انطلاقة الليبيدو الكبرى لدى الفتى ، يتصف لدى الفتاة بموجة جديدة من الكبت تصيب الجنسية البظرية في المقام الاول . وإن ما يجري كبته عندئذ هو عنصر من الجنسية الذكرية . أما لدى الذكور فإن تعضيد العقبات في وجه الجنسية بفعل الكبت المصاحب لزمن البلوغ يكون بمثابة عنصر منبه لليبيدو وحاضٍ له على قدر اكبر من النشاط . وبالتوازي مع ارتفاع مستوى الليبيدو تزداد المبالغة في التقييم الجنسي وتدرك ذروتها في مواجهة المرأة التي تتمنع وتنكر صفتها الجنسية . ويحتفظ البظر ، حين يستثار في أثناء الفعل الجنسي الذي تغدو المرأة في نهاية المطاف متهيئة له ، بدوره في نقل الاثارة الى الاجزاء التناسلية المجاورة ، مثله في ذلك مثل النشارة التي تستخدم في إشعال حطب أقسى . وقد تنقضي أحياناً وهلة من الزمن قبل ان يتم هذا النقل ، لا تكون اثناءها المرأة حساسة باللذة . وقد تمسي هذه اللاحساسية دائمة حين تمتنع منطقة البظر عن نقل تهيجها ـ وقد يكون مرد ذلك بصورة رئيسية الى نشاطيتها المسرفة في اثناء الطفولة . ومعلوم أن لاحساسية النساء هي في الغالب ظاهرة وموضعية فحسب . فلئن انعدمت حساسيتهن بتنبيهات الفتحة المهبلية ، فإنهن يبقين حساسات بالتنبيه من البظر أو حتى من احدى المناطق الأخرى . وبالاضافة الى هذه العلل الشهوية لانعدام الحساسية ، هناك علل اخرى ذات طابع نفسي ، ومشروطة كسابقتها بالكبت .

متى ما تم نقل التنبيه الشهوي من البظر الى فتحة المهبل ، يحدث لدى المرأة تغير في المنطقة الرائدة يرتهن به مستقبل حياتها الجنسية ، بينما يحافظ الرجل على المنطقة ذاتها منذ طفولته . وتغير المنطقة الشهوية الرائدة واندفاعة الكبت في طور البلوغ ـ هذه الاندفاعة التي تبغي فيما يبدو إلغاء صفة الذكورة الجنسية لدى الفتاة ـ يوفران الشروط التي تهيء

المرأة للاعصبة ، وعلى الاخص للهستيريا . وهذه الشروط وثيقة الصلة بماهية الانوثة .

٥ ـ اكتشاف الموضوع

في الوقت الذي تفرض فيه سيرورة البلوغ زعامة المناطق التناسلية ، ويشير فيه اندفاع عضو الذكورة الذي صار قابلاً للانتصاب الى الهدف الجديد ، أي الدلوف الى تجويف من شأنه إثارة التهيج ، يفسح النمو النفسي مجالاً للجنسية للعثور على موضوعها ، على نحو ما أعدت له العدة منذ الطفولة . فيوم كان الاشباع الجنسي مرتبطاً بتناول الغذاء ، كانت الغريزة تعثر على موضوعها خارج الجسم في مص ثدي الأم . ثم ما لبث هذا الموضوع أن افتقد ، وربما حين اقتدر الطفل على ان يرى الشخص صاحب العضو الذي يمده بالاشباع بكامله وتمامه . ومنذئذ تغدو الغريزة ايروسية ذاتية ، ولا تعود العلاقة الأصلية ثانية إلا بعد تجاوز طور الكمون . وليس من قبيل المصادفة ان يكون الطفل الذي يرضع من ثدي أمه صار النموذج الأول لكل علاقة حب . فالعثور على الموضوع الجنسي إن هو في واقع الأمر إلا اهتداء جديد اليه(١٠) .

الموضوع الجنسي في فترة الرضاعة ـ غير انه يتبقى من هذه العلاقة الجنسية ، التي هي أولى العلاقات وأهمها ، حتى بعد انفصال النشاط الجنسي عن تناول الغذاء ، رسابة ذات شأن تسهم في الإعداد لاختيار الموضوع ، ومن ثم في استعادة السعادة المفتقدة . فعلى امتداد فترة الكمون يتعلم الطفل ان **يحب** اشخاصاً آخرين يمدون اليه يد العون في عوزه الاصلي ويلبون حاجاته ؛ ويتكون هذا الحب وفق نموذج العلاقة بالأم في فترة الرضاعة واستمراراً لها . وقد يأبى بعضهم ان يماثل بين

(١٠) [ينبئنا التحليل النفسي ان اختيار الموضوع الجنعي يتم بطريقتين مختلفيتين.فإما أن يتم، كما رأينا من قبل ، بالطريقة **الوكلية** ، أي بالتعلق ببعض المواضيع التي ترجع أصولها الى الطفولة الاولى ، وإما أن يتلبس طابعاً من **النرجسية** حيث يبحث الفرد عن ذاته ويجدها في شخص آخر . ولهذه الطريقة الاخيرة اهمية بالغة في الحالات المرضية ، ولكن ذلك لا يدخل ضمن الاطار الذي اختططناه لأنفسنا هنا] (اضيف سنة ١٩١٥) .

المشاعر الحانية والايثارية التي يخص بها الطفل الاشخاص الذين يتولون العناية به وبين الحب الجنسي . لكنني اعتقد أن التعمق في البحث السيكولوجي من شأنه أن يقرر هذا التماثل بيقين لا يرقى اليه الشك . فعلاقات الطفل بالاشخاص الذين يعنون به هي له بمثابة مصدر لا ينضب من التنبيه والإشباع الجنسيين انطلاقاً من المناطق الشهوية ، ولا سيما ان الشخص المكلف بالعناية بالطفل (الأم عادة) يظهر له مشاعر مشتقة من حياته الجنسية الخاصة ، فيعانقه ويهدهده وينظر اليه ، بلا ادنى ريب ، نظرته الى بديل عن موضوع جنسي كامل[11] . وارجح الظن أن الأم ستبغت بشدة ان قلنا لها إنها توقظ على هذا النحو ، بملاطفاتها ، الغريزة الجنسية لدى طفلها وتعيّن شدتها مستقبلاً . فهي تعتقد أن ملاطفاتها تنم عن حب لاجنسي و « طاهر » ، لا نصيب فيه للجنسية ، وذلك ما دامت تتحاشى أن تثير اعضاء الطفل الجنسية اكثر مما تستوجبه العنايةبجسمه.

لكننا نعلم أن الغريزة الجنسية لا يوقظها تنبيه المنطقة التناسلية وحده ؛ فما نسميه بالحنو لا بد ان يؤثر يوماً في المنطقة التناسلية ايضاً . ثم إن الام لو زادت اطلاعاً على أهمية الغرائز في مجمل الحياة العقلية ، وفي كل النشاط الاخلاقي والنفسي ، لامتنعت حتى بعد استنارتها عن توجيه اي لوم الى نفسها . فهي لا تفعل سوى تأدية واجبها حين تعلّم الطفل أن يحب ، ليصير كائناً كاملاً وصحيحاً، محبواً بجنسية مكتملة النمو ، قادراً على أن يحقق في حياته كل ما تتطلبه الغريزة منه . ونحن لا ننكر ان الشطط في الحنو الوالدي قد يكون ضار العواقب لأنه قد ينمي شهوانية مبكرة ، وقد يفسد الطفل بـ « التدليل » ويجعله عاجزاً عن التخلي مؤقتاً عن الحب أو عن الاكتفاء بحب اكثر اعتدالاً واتزاناً . ولئن أظهر الطفل جوعاً لا يشبع الى حنو الوالدين ، فذلك نذير جلي بعصبية لاحقة . ومن جهة اخرى ، فإن الوالدين العصابيين هما اللذان يجنحان ، كما هو معلوم ، الى الشطط في

(١١) أنصح اولئك الذين قد تصدمهم تأويلاتي ان يقرؤوا ذلك المقطع من كتاب هافلوك ايليس ، **علم النفس الجنسي** ، الذي يتناول فيه المؤلف العلاقات بين الام والطفل تناولاً يتفق الى حد بعيد مع تأويلي .

الحنو ، فيوقظان بمداعباتهما استعدادات الطفل للعصاب . ويدلنا هذا المثال على أن ثمة طرقاً مباشرة اكثر من الوراثة لنقل الاعصبة الى الاطفال .

الحصر الطفلي ـ يشير سلوك الاطفال ، من نعومة أظفارهم ، الى أن تعلقهم بالاشخاص الذين يعنون بهم هو من قبيل الحب الجنسي . وما الحصر عند الاطفال اصلاً إلا تعبير عن شعورهم بافتقاد الشخص المحبوب . لهذا نراهم يقابلون كل غريب بالخوف ، والظلام يثير قلقهم لأنهم لا يرون فيه الشخص الحبيب ، ولا يسكن لهم روع إلا متى أمسكوا بيد هذا الشخص . واننا لنهول من شأن الغيلان وقصص المربيات المرعبة حين نحمِّلها تبعة المخاوف الطفلية . فمثل هذه القصص لا تؤثر إلا في من كان لديه استعداد مسبق من الاطفال ، على حين أنها تبقى بلا مفعول على الاطلاق بالنسبة الى سواهم . والاطفال الذين بكرت غريزتهم الجنسية بالظهور ، أو شطت وأسرفت في إلحاحها ، هم الذين يظهرون استعداداً مسبقاً للقلق والحصر . ويسلك الطفل في هذه الحال سلوك الراشد : فاللبيبدو لديه ينقلب الى حصر حينما يعجز عن الوصول الى إشباع . كما ان الراشد ، الذي صار معصوباً لبقاء الليبيدو لديه بلا إشباع ، يسلك في هواجس حصره سلوك الطفل . فيطفق ينتابه الخوف حالما يُترك بمفرده ، أي بلا وجود شخص يمكنه فيما يتراءى له ان يعتمد على حبه ، ونراه يلجأ ، تسكيناً لهواجسه ، الى تدابير صبيانية الى أبعد مدى[12] .

(١٢) اني أدين لصبي صغير في السنة الثالثة من العمر بمعلوماتي عن أصل الحصر الطفلي . ففيما كان يوماً في غرفة معتمة سمعته يصيح : «كلميني يا خالتي ، فأنا خائف بسبب الظلام » . فأجابته الخالة : « وما فائدة ذلك لك ما دمت لا تستطيع أن تراني » . فأجاب الطفل : « ذلك لا يهم ، فالظلام يذهب ان تكلم احد ما » . اذن فالطفل ما كان يخشى الظلام ، بل كان سبب قلقه غياب شخص محبوب منه ، وكان بوسعه ان يؤكد ان روعه سيسكن حالما يحس بحضور هذا الشخص . [إن واحدة من أهم نتائج التحليل النفسي كشفه أن الحصر العصابي ينشأ من الليبيدو ، وأنه من نتاجه ، مثلما الخل من نتاج النبيذ . ولمزيد من التفصيل راجع كتابي **مدخل الى التحليل النفسي** ، ١٩١٧ ، بالرغم من أني لا استطيع ان ازعم أني أقدم فيه الحل الشافي والنهائي للمشكلة] (اضيف سنة =

حاجز المحارم - ان وفق حنو الوالدين الى الحؤول دون الاستيقاظ المبكر لغريزة الطفل الجنسية ، أي إن تجنب منحها ، قبل ان تتوفر شروط البلوغ الجسمانية ، قوة ينصب معها التهيج النفسي بما لا شبهة فيه على الجهاز التناسلي ، استطاع هذا الحب ان يفي بالمهمة المتوقعة منه ، وهي توجيه خطى الطفل متى ما صار راشداً في اختيار الموضوع الجنسي . صحيح أن الطفل سينزع بطبيعة الحال الى اختيار الاشخاص الذين أحبهم في طفولته بدافع من ليبيدو مخفف بنوع ما[١٣]. غير أن إرجاء النضج الجنسي يوفر الزمن الضروري لبناء حاجز المحارم الى جانب سائر ضروب الكف الجنسي . وبذلك يتأتى للطفل أن يتمثل التعاليم الاخلاقية التي تستبعد بصراحة ووضوح الاشخاص الذين أحبهم في طفولته والذين هم من ذوي الارحام من مجال اختيار الموضوع . والمجتمع هو الذي يفرض هذا التقييد ، اضطراراً منه الى الحؤول دون استيعاب الأسرة لجميع القوى التي هو بحاجة اليها لبناء تنظيمات اجتماعية أعلى ؛ ولذلك يلجأ المجتمع الى جميع الوسائل التي من شأنها أن تؤدي لدى كل عضو من أعضائه ، وعلى الاخص لدى المراهقين ، الى تراخي الروابط العائلية التي ما كان ثمة روابط غيرها تشد الفرد في طفولته[١٤]

غير ان اختيار الموضوع يتم أول الأمر في شكل تمثلات وتصورات ، ولا يتأتى للحياة الجنسية عند المراهق ان تسلك ، مؤقتاً ، غير طريق

= ١٩٢٠) . (راجع ترجمتنا لهذا **المدخل** ، الجزء الثالث ، **النظرية العامة للامراض العصابية** ، المحاضرة الخامسة والعشرون : **الحصر** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١٧٨ـ ٢١٠ . « م ») .

(١٣)[انظر ما قلته آنفاً بصدد الاختيار الجنسي لدى الطفل وبصدد « تيارات الحنو »] (اضيف سنة ١٩١٥) .

(١٤) [ثمة مجال للافتراض أن حاجز المحارم هو من المكاسب التاريخية للبشرية ، وان الوراثة هي التي ثبتته لدى الكثيرين من الافراد ، مثله في ذلك مثل كثير غيره من محظوراتنا الاخلاقية (انظر فرويد : **الطوطم والتابو** ، ١٩١٣) . بيد ان التحليل النفسي يكشف لنا عن مدى الصراع الذي يتعين على الفرد ان يخوض غماره في مراحل نموه ليتغلب على الاغراءات التي تدفع به نحو حب المحارم ، كما يكشف لنا أنه كثيراً ما يسقط الفرد في شرك هذه الاغراءات ، سواء أفي الخيال أم حتى في الواقع] (اضيف سنة ١٩١٥) .

التخيل ، أي طريق التمثلات والتصورات التي ليس مقيضاً لها أن تخرج الى حيز التنفيذ[١٥] . وتتبدى ثانية في هذه التخيلات لدى كل انسان الميول والنوازع الطفلية وقد عززها النمو البدني ؛ وأهم هذه الميول واكثرها تواتراً النازع الجنسي الذي يتلبس في اغلب الاحيان طابعاً متبايناً تبعاً لانجذاب الطفل جنسياً نحو والديه : الابن نحو الام ، والبنت نحو

---

(١٥) [ان تخيلات زمن البلوغ تنطلق من البحوث الجنسية عينها التي كان الطفل قد تخلى عنها في خاتمة المطاف . وهذه التخيلات قد توجد حتى قبل نهاية مرحلة الكمون . وقد تبقى برمتها ، أو بجزء منها ، أسيرة اللاشعور . ولهذا ايضاً يتعذر في كثير من الاحيان تحديد زمن ظهورها . ودورها عظيم في تكوين أعراض شتى ، وهي لها بمثابة مراحل تمهيدية ، ومن ثم فهي تمثل الأشكال والصور التي يتخذها اشباع بعض مركبات الليبيدو المكبوتة . أضف الى ذلك أنها النماذج المحتذاة للتخيلات الليلية التي تصير شعورية في شكل احلام . وما الاحلام في كثير من الاحيان إلا إحياء لهذا النوع من التخيلات ، تحت تأثير التنبيهات المتخلفة من حالة اليقظة (« البقايا النهارية ») . ومن التخيلات الجنسية في زمن البلوغ ما يتميز منها بتواتره لدى كل فرد على وجه التقريب ، أياً ما كانت خبراته الشخصية . ولنذكر ضمن هذا السياق نفسه الرؤيا التي تصور للطفل انه شهد الجماع بين والديه ، وأن شخصاً يحبه قد أغواه وغرر به في سن مبكرة ، وانه مهدد بالخصاء ، وانه تعرض في اثناء اقامته في رحم الأم لصروف شتى . ومن هذا القبيل ايضاً ما يسمى بـ « الرؤية العائلية » التي يبني فيها المراهق اسطورة كاملة انطلاقاً من الفارق بين موقفه القديم من والديه وموقفه الراهن . وقد أوضح أ . رانك في بحث له بعنوان **اساطير ميلاد الابطال** ، ١٩٠٩ ، العلاقات القائمة بين هذا النوع من التخيلات وبين الميتولوجيا .

لقد قيل بحق ان عقدة اوديب هي العقدة النووية في الاعصبة ، وإنها تؤلف الجانب الاكثر جوهرية من مضمون هذه الامراض . ففيها تبلغ الذروة الجنسية الطفلية التي سيكون لها لاحقاً تأثير حاسم في جنسية الراشد . وتقع على عاتق كل كائن انساني مهمة السيطرة على عقدة اوديب ، فإن فشل في هذه المهمة وقع فريسة للعصاب . وقد علمنا التحليل النفسي ان نقدِّر اكثر فاكثر الاهمية الجوهرية لعقدة اوديب ، وبوسعنا القول إن ما يفرِّق بين خصوم التحليل النفسي وانصاره مدى الاهمية التي يعلقها هؤلاء الاخيرون على هذه الواقعة] (اضيف سنة ١٩٢٠) . [في كتاب آخر (رضة **الميلاد**، ١٩٢٤) ، يرجع رانك التعلق بالام الى الحقبة ما قبل التاريخية من الاقامة في الرحم ، مبيناً على هذا النحو الأساس البيولوجي لعقدة اوديب . وخلافاً لما تقدم قوله اعلاه ، يعلل حاجز المحارم بالاثر الرضي لحصر الميلاد] (اضيف سنة ١٩٢٤) .

الأب(١٦) . وفي الوقت نفسه الذي يتم فيه نبذ هذه التخيلات المحرمية وتجاوزها ، يتحقق ايضاً عمل سيكولوجي مميز لفترة البلوغ ، هو من أهم المهام ومن أشدها ايلاماً في آن معاً ، واعني به المجهود الذي يبذله الطفل لينعتق من سلطة والديه، هذا المجهود الذي عنه وحده ينشأ التعارض ، البالغ الاهمية بالنسبة الى التقدم الحضاري ، بين الجيل الجديد والجيل القديم .

وعند كل مرحلة من مراحل التطور هذه التي يتعين على كل كائن سوي اجتيازها ، يمكن ان يتوقف بعض الافراد ؛ وهكذا نقابل أشخاصاً لم ينعتقوا قط من سلطة الوالدين ، وما استطاعوا ان يفصلوا عن والديهم مشاعرهم الحانية ، أو على الاقل ما استطاعوا ذلك إلا على نحو منقوص . وفي طليعة هؤلاء بنات صبايا بقين مقيمات، على فرح عظيم من الأهل، على الحب البنوي التام والكامل الى ما بعد البلوغ بزمن طويل ؛ ومن المشوِّق ان نلاحظ ان هؤلاء البنات يعجزن، اذا ما تزوجن ، عن وهب ازواجهن كل ما هو من حقهم ؛ فيصبحن زوجات باردات ، ويبقين فاقدات الحس جنسياً . وبوسعنا ان نستخلص من ذلك أن الحب البنوي ، غير الجنسي في ظاهره ، والحب الجنسي يتغذيان من مصادر واحدة ، أي ان الحب البنوي ما هو إلا تثبيت طفلي لليبيدو .

كلما تمعَّنا عن كثب في الاضطرابات العميقة للتطور الجنسي النفسي ، تبدت لنا اهمية العنصر المحرمي في اختيار الموضوع . وفي حالات الاعصبة النفسية يبقى النشاط الجنسي النفسي ، الذي يجدّ في إثر الموضوع ، أسير اللاشعور بكامله أو بالشطر الأكبر منه ، نتيجة لإنكار الجنسية . والبنات اللائي تساورهن حاجة الى حنو مسرف ويستبد بهن رعب مسرف ايضاً من مطالب الحياة الجنسية ، عرضة لإغراء لا يقاوم يدفع بهن من جهة أولى الى السعي في الحياة وراء مثل أعلى من حب لاجنسي ، ومن الجهة الثانية الى تمويه الليبيدو عندهن بحنو في متاحهن الافصاح عنه دون ان

(١٦) انظر تأويلاتي عن طابع القدر المقدر الذي تعزوه الاسطورة الى مصير اوديب في **تفسير الاحلام** ، ١٩٠٠ .

يكون لزاماً عليهن تأنيب أنفسهن ، وذلك بحفاظهن مدى حياتهن على عواطفهن الطفلية تجاه الوالدين والاخوة والاخوات ، هذه العواطف التي يحييها البلوغ ويجددها . وفي مستطاع التحليل النفسي ان يثبت لهذه الفئة من الافراد بلا صعوبة انهم واقعون في **حب** اهلهم ، بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، وذلك بتقصيه، من خلال أعراضهم المرضية ، أفكارهم اللاشعورية ورده إياها الى الشعور . والأمر بالمثل في حالة الفرد الذي يبدأ أول الامر حياة سوية ، ثم لا يلبث ان تظهر عليه سمات مرضية غب إخفاقه في تجربة حب . ونستطيع ان نثبت ، على وجه اليقين ، أن أوالية المرض تتمثل بارتداد الليبيدو لدى الفرد الى الاشخاص الذين أحبهم في طفولته .

الآثار البعيدة للاختيار الطفلي للموضوع - من وفق الى تحاشي تثبيت محرمي لليبيدو لديه، لا ينعتق كل الانعتاق من تأثير هذا التثبيت . فلا مرية في أن صدى من المرحلة الاولية هو الذي يحمل الفتى على ان يختار موضوعاً لحبه الجاد الأول امرأة ناضجة ، وهو الذي يحمل الفتاة على التدله بحب رجل كهل له قدره من الاعتبار ؛ فهؤلاء الاشخاص يحيون فيهما صورة الأم او صورة الأب(١٧) . وبوسعنا الافتراض ان اختيار الموضوع يتم ، بصفة عامة ، بالاستناد الى هذين النموذجين وبهامش اكبر من الحرية . فالرجل يبحث قبل كل شيء عن صورة الأم التي هيمنت عليه منذ طفولته ، وتتفق هذه الواقعة الى حد غير قليل مع الواقعة الاخرى التي تتمثل في أن الأم تعارض بشدة - ان كانت لا تزال على قيد الحياة - هذه الصورة الجديدة عن شخصها وتقابلها بالعداء . واذا اخذنا باعتبارنا ايضاً ما لعلاقات الاطفال بوالديهم من اهمية في الاختيار اللاحق للموضوع الجنسي ، فهمنا بلا مشقة أن أي اضطراب في هذه العلاقات لدى الطفل تترتب عليه أخطر العواقب بالنسبة الى الحياة الجنسية الراشدة . وهكذا يكون لغيرة المحبين في ارجح الظن جذور في خبرات الطفولة ، أو على الأقل تعضيد لها فيها . والمشاحنات بين الوالدين أو عدم التوفيق في زواجهما تستتبعها استعدادات وخيمة لاضطرابات النمو

(١٧) انظر مقالي المعنون **نمط خاص من الاختيار الموضوعاني لدى الرجل** ، ١٩١٠ .

الجنسي أو للأعصبة لدى اولادهما .

ان عاطفة الطفل نحو والديه تترك انطباعات قد تكون من اعمق الانطباعات اطلاقاً ، فتتحكم ، متى ما تجددت في البلوغ ، بوجهة اختيار الموضوع ؛ لكن ليس هذا هو العامل الوحيد الذي ينبغي أن يؤخذ في الحساب . فثمة توجهات اخرى ، لها هي الاخرى أصل بعيد ، تتيح للراشد ان يطور ، بوحي من خبرات الطفولة،عدة **سلاسل جنسية** ، أي ان يحقق شروطاً بالغة التنوع في تحديد اختيار الموضوع[18] .

الوقاية من الشذوذ ـ إن أحد الاهداف الواضحة للاختيار ان يطال موضوعاً يعود الى الجنس الآخر . والمشكلة ، كما هو معلوم ، لا تجد حلاً لها إلا بعد قدر من التردد والتحير . فحين تأزف ساعة البلوغ يضل الفرد سبيله الاول في كثير من الاحيان ، دون ان يترتب على هذا الضلال ضرر مقيم . وقد نبه دسوار DESSOIR بحق الى اطراد تكرر الخصائص نفسها في الصداقات الحماسية أو العاطفية التي تجمع بين المراهقين من جنس واحد . والقوة التي تحول دون التمادي في الشذوذ هي في المقام الأول الجاذبية التي تمارسها الصفات المتضادة لأحد الجنسين على الجنس الآخر . ولا يسعنا هنا ، في إطار هذا المبحث ، ان نحاول الاتيان بتفسير لهذه الظاهرة[19] . غير ان هذا العامل لا يكفي وحده لاستبعاد الشذوذ . فثمة عناصر ثانوية إضافية تفعل في الاتجاه نفسه . ونخص بالذكر منها ، في المقام الاول ، التأثير الكابح للمجتمع ؛ فحيثما لا يعد الشذوذ جريمة نشاهد أنه يتطابق والرغبة الجنسية للعديد من الافراد . وبوسعنا ايضاً الافتراض ان ذكريات الفتى عن طفولته ، التي كان فيها موضع عناية أمه أو نساء أخر من محيطه ، تسهم إسهاماً حاسماً في توجيه الاختيار نحو

(١٨) [لا سبيل الى فهم عدد غفير من خصائص الحياة الحبية ، وكذلك الطابع القهري الذي تتلبسه الاهواء الحبية ، إلا بالرجوع الى الطفولة وإلا اذا اعتبرت أصداء لظاهرات حدثت في ذلك الطور من العمر،وآثارها لا تزال ملموسة] (اضيف سنة ١٩١٥) .

(١٩) يجدر التنويه هنا بنص لفيرنزي (**مبحث في النظرية التناسلية** ، ١٩٢٤) ، وهو نص غني ثري بالافكار وان كان لا يخلو من شطط في الخيال. فهو يشتق الحياة الجنسية للحيوانات العليا من تاريخ تطورها البيولوجي .

المرأة [بينما ينثني الفتى عن جنسه بفعل ردع الأب المبكر للطفل عن النشاط الجنسي وموقف التنافس الذي يقفه منه . لكن لنبادر الى الاضافة بأن هذين العاملين يفعلان فعلهما لدى الفتاة التي يتطور نشاطها الجنسي تحت رعاية الأم بصورة خاصة . وبذلك تنتهي الى وقوف موقف عدائي حيال جنسها ، له ابلغ الأثر في اختيارها للموضوع في الحالات التي تعد سوية] (عدل سنة ١٩١٥) . ويبدو أن تنشئة الصبيان على أيدي افراد من الجنس المذكر (العبيد في العصور القديمة) يسرت التطور باتجاه الجنسية المثلية ، وشيوع الشذوذ في الاوساط الارستقراطية اليوم يمكن أن يجد له تفسيراً اكمل ان اخذنا في اعتبارنا ان الأسر الارستقراطية تستعين بالخدم الذكور بصورة خاصة ، وأن الأمهات فيها لا يتولين كامل العناية بأولادهن . ونلاحظ في بعض حالات الهستيريا ان الشروط التي حددت اختيار الموضوع الجنسي ، وثبتت بالتالي دوام الشذوذ ، ترتد في أصلها الى كون احد الوالدين قد اختفى في وقت مبكر (لموته او لطلاقه عن شريكه او لخسارته حب طفله له) ،مما جعل كل حب الطفل ينصب على الوالد المتبقي له .

خلاصة

لقد آن الأوان فيما يبدو لنا لرسم صورة إجمالية . فقد انطلقنا من حيدانات الغريزة الجنسية عن موضوعها وهدفها وطرحنا على أنفسنا السؤال التالي : هل هذه الحيدانات ناشئة عن استعداد فطري ام أنها مكتسبة ؟ وإنّ ما اتاح لنا الاجابة هو المعلومات التي استقيناها من الموقف الجنسي كما لاحظناه لدى الاشخاص المصابين بأعصبة نفسية ، وهم فئة كثيرة التعداد من الناس ، لا تنأى بهم الشقة كثيراً عن الافراد الاسوياء . وقد حصلنا على هذه المعلومات بواسطة منهج التحليل النفسي . وقد تحققنا ان افراد هذه الفئة توجد لديهم استعدادت مشتركة لجميع الانحرافات ، في شكل قوى لاشعورية تتعين بها طائفة بكاملها من الاعراض . وبذلك امكن لنا القول ان العصاب هو الصورة السالبة للانحراف . وبعد ما تأكد لنا شيوع الاستعدادات للانحراف على نطاق واسع ، لم نجد مناصاً من الافتراض بأن الاستعداد للانحراف هو حقاً الاستعداد العام ، الاصلي ، للغريزة الجنسية التي لا تغدو سوية إلا بفعل تغيرات عضوية وضروب من الكف النفسي تطرأ في أثناء تطورها . ومن ثم راودنا الأمل بأن نعثر على الاستعداد الأصلي لدى الطفل . وضمن القوى التي تقيد وجهة الغريزة الجنسية ذكرنا في المقام الاول الحياء والقرف والشفقة والتصورات الاخلاقية الجماعية التي يفرضها المجتمع . وهكذا كان كل حيدان للحياة الجنسية يبدو لنا ، حالما يأخذ صفة الثبات ، ناجماً عن تعطيل للنمو وعلامة من علامات الطفالة . وقد ألحجنا على التأثير الراجح الكفة للتنوعات في الاستعدادات الاصلية ، مع تسلمنا

بأنه ليس بينها وبين مؤثرات الحياة تعارض ، بل تعاون . وبما اننا سلمنا من جهة اخرى بأن التعقيد هو طابع الاستعداد الاصلي ، فقد بدت لنا الغريزة الجنسية بحد ذاتها مركّباً لا تلبث شتى عناصره ان تنفصم في الحالات الانحرافية . وبذلك يمكن للانحرافات ان تتبدى إما على أنها نتيجة ضروب من الكف ، وإما على أنها حصيلة تفكك وانفصام في مجرى تطور سوي . ويلتقي هذان التصوران في الفرضية القائلة ان غريزة الراشدين الجنسية تتكون من اندماج العديد من نوازع الحياة الطفلية واندفاعاتها على نحو تؤلف معه وحدة ، ميلاً متجهاً نحو هدف واحد أوحد .

وقد فسرنا ايضاً غلبة الاستعدادات الانحرافية في حالات الاعصبة النفسية بإرجاعنا المرض الى التحول عن المجرى الرئيسي الى روافد جانبية بفعل « الكبت[1] » . ثم حللنا الحياة الجنسية في أثناء الطفولة ؛ فتأسفنا لما يُبدى من رغبة في تجاهل الغريزة الجنسية للطفولة ، ولما توصف به التظاهرات الجنسية التي لا تندر مشاهدتها في هذا العمر بأنها ظاهرات غير سوية . وقد بدا لنا ، على العكس ، أن الطفل يحمل معه ، حين ولادته ، بذور حياة جنسية ، وأنه يشعر عند الرضاع بإشباع من طبيعة جنسية ، وأنه لا يفتأ بعد ذلك يطلب هذا الاشباع في فعل « المص » المألوف . وقلنا إن نشاط الطفل الجنسي هذا لا ينمو مثلما تنمو الوظائف الاخرى ، بل يدخل في طور من الكمون بعد فترة تفتح وجيزة تمتد بين السنة الثانية والخامسة . وذكرنا أن تولد التهيج الجنسي لا يتوقف في هذا الطور ، بل يستمر وينتج ذخيرة من الطاقة تُحول ، في شطر كبير منها ، نحو أهداف أخرى غير الاهداف الجنسية ؛ أي انها تسهم في تكوين المشاعر

(١) [لا يصدق هذا على الميول الى الانحراف التي تظهر في الاعصبة في « الصورة السالبة » فحسب ، بل كذلك على الميول « الموجبة »، أي الانحرافات بملء المعنى . ومن ثم، من الخطأ إرجاع الانحرافات بملء المعنى حصراً الى ميول طفلية قيض لها ان تتثبت ، بل ينبغي اعتبارها ايضاً نكوصاً نحو هذه الميول نتيجة لانسداد مجرى التطور الحر أمام التيارات الاخرى للحياة الجنسية . لهذا يمكن معالجة الانحرافات « الموجبة » هي ايضاً بطرائق التحليل النفسي] (اضيف سنة ١٩١٥) .

الاجتماعية ، وتبني من جهة اخرى ، بواسطة الكبت والتشكيلات الارتجاعية الحواجز والسدود الجنسية التي سيكون لها دور تؤديه فيما بعد . والاستنتاج الذي بدا أنه يفرض نفسه هو أن هذه القوى المرصودة لمحاصرة الغريزة الجنسية ضمن اتجاهات معينة تنمو في الطفولة بموازرة التربية وعلى حساب النوازع الجنسية التي لها ، في اغلب الاحيان ، طابع انحرافي . ومن الممكن أن يفلت شطر من النوازع الجنسية الطفلية من هذا التحويل ليفصح عن نفسه في صورة نشاط جنسي . وهكذا يلوح ان تهيج الطفل الجنسي يمتح من مصادر عدة : وفي المقام الاول من المناطق الشهوية التي ينشأ عنها إشباع كلما امكن تنبيهها بصورة موائمة . وتشير الدلائل كافة الى أن وظيفة المنطقة الشهوية يمكن ان تقوم بها جميع أجزاء البشرة وجميع اعضاء الحواس [بل ربما أي عضو] (اضيف سنة ١٩١٥) . غير أنه توجد مناطق متميزة تتوفر لها من البداية قابلية التهيج بحكم بنيتها العضوية . اضف الى ذلك ان التهييج الجنسي يأتي كنتاج هامشي ، ان جاز التعبير ، لعدد معين من السيرورات الداخلية متى ما بلغت درجة كافية من الشدة ، وعلى الأخص ان كانت عبارة عن انفعالات قوية ، حتى ولو من طبيعة مؤلمة . والتنبيهات التي تصدر عن هذه المصادر كافة لا تتوافق بعد فيما بينها لتشكل تنبيهاً واحداً متكاملاً ، بل ينشد كل تنبيه منها هدفاً منفصلاً هو مجرد الفوز بلذة ما . وهذا ما يحملنا على الافتراض بأن الغريزة الجنسية في الطفولة **لا تكون بعد ذات مركز واحد** ، وأنها في بداية الأمر بلا موضوع ، أي **ايروسية ذاتية** .

ان وجود المنطقة الشهوية المتموضعة في الجهاز التناسلي يعلن عن نفسه ابتداء من مرحلة الطفولة ، وذلك سواء أاستجابت المنطقة التناسلية ، مثلها في ذلك مثل أي منطقة شهوية اخرى ، للتنبيهات المناسبة بإفضائها الى إشباع ، أم تولد ، بكيفية غير مفهومة بعد تماماً ، عن إشباع صادر عن مصادر اخرى تهيج جنسي يكون له صدى خاص في المنطقة التناسلية . وقد وجدنا لزاماً علينا ان نقر ، آسفين ، بأنه ليس متاحاً لنا ان نقدم تفسيراً مرضياً للعلاقات القائمة بين التهيج الجنسي والاشباع الجنسي ، ولا كذلك للعلاقات التي نفترض انها قائمة بين نشاط المنطقة

التناسلية ونشاط المصادر الاخرى للجنسية .

[لقد تبين لنا في دراستنا للاضطرابات العصابية أنه توجد في الحياة الجنسية للطفولة ، من البداية ، باكورة تنظيم لمركّبات الغريزة الجنسية . ففي طور أول ، ممعن في التبكير ، ترجح كفة الايروسية **الفمية** ، بينما يتسم الطور الثاني من التنظيم « القبتناسلي بغلبة **السادية** والايروسية **الشرجية** ؛ وإنما في الطور الثالث [الذي لا يتطور لدى الطفل إلا الى حين أيلولة الزعامة الى القضيب) فحسب تغدو الحياة الجنسية متعينة بما تسهم به فيها المناطق التناسلية بحصر المعنى .

كان لزاماً علينا أن نلاحظ بعد ذلك ، على دهش عظيم منا ، أن هذه الحياة الجنسية الطفلية الاولى (من السنة الثانية الى الخامسة) تؤدي الى اختيار موضوع ، بكل ما يصحب ذلك من أنشطة نفسية بالغة التنوع ، بحيث يباح لنا أن نعد هذه المرحلة ، رغم انعدام التنسيق بين المركّبات الغريزية ورغم عدم وضوح الهدف الجنسي ، بشيراً هاماً بالتنظيم الجنسي النهائي .

وقد بدا لنا أن ما يستوجب انتباهاً خاصاً هو حدوث النمو الجنسي **على دفعتين** متعاقبتين ، أي وجود انقطاع متعين بمرحلة الكمون . وبالفعل ، إن ذلك واحد من الشروط التي تتيح للانسان التقدم نحو مستوى أرقى من الحضارة ، كما أنه يقدم لنا أيضاً تفسيراً للاستعدادات للاعصبة . ولا نرى شيئاً من هذا القبيل لدى الحيوانات القريبة من الانسان . وللاهتداء الى أصول هذه الخاصية في التطور الانساني ، لا بد من الرجوع الى ما قبل التاريخ] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

ولا يسعنا أن نحدد ما درجة النشاط الجنسي في الطفولة التي ينبغي أن تعد سوية وغير معيقة للنمو اللاحق . وقد أوضحنا ان تظاهرات الجنسية الطفلية ترتدي طابعاً استمنائياً في المقام الأول . ثم لاحظنا بعد ذلك ، بالاستناد الى التجربة والخبرة ، ان المؤثرات الخارجية ذات الصلة بالإغواء قد تتسبب في حدوث انقطاعات سابقة لأوانها في مرحلة الكمون ، بل قد تلغي هذه المرحلة برمتها ، فتتبدى غريزة الطفل الجنسية عندئذ انحرافية متعددة الاشكال . ورأينا اخيراً ان كل نشاط جنسي سابق

لأوانه ، ناجم عن علة كهذه ، يجعل تربية الطفل أشداً عسراً .

بالرغم من أن معرفتنا بالحياة الجنسية الطفلية تشكو من فجوات واسعة ، فقد حاولنا أن نحلل التغيرات التي تطرأ مع البلوغ وقد اعتبرنا أن من أهم هذه التغيرات ، أولاً ، خضوع جميع الإثارات الجنسية ، كائناً ما كان مصدرها ، لزعامة المناطق التناسلية ، وثانياً ، السيرورة التي بها يتم العثور على الموضوع . والمعالم الاولى لهاتين الظاهرتين ترتسم في الطفولة . ويتحقق خضوع الاثارات الجنسية عن طريق استخدام اللذة التمهيدية استخداماً تصبح معه الافعال الجنسية ، التي كانت مستقلة الى ذلك الحين عن بعضها بعضاً ، ممهدة للفعل الجنسي الجديد - افراغ المنتجات التناسلية - الذي تدرك فيه اللذة ذروتها ، فيزول التهيج الجنسي . وكان علينا أن نأخذ بعين الاعتبار في تحليلنا تمايز الكائن الجنسي الى رجل وامرأة ، وقد وجدنا أن الايلولة الى امرأة تقتضي كبتاً جديداً يختفي معه جزء من ذكورة المرأة الطفلية ويهيء هذه الاخيرة لاستبدال منطقة تناسلية رائدة بأخرى. ولاحظنا اخيراً ان اختيار الموضوع تتحدد معالمه الاولى في الطفولة ، ثم لا تلبث هذه المعالم ، ونقصد بها عاطفة الطفل تجاه والديه والاشخاص المحيطين به ، ان تستعاد عند البلوغ ؛ ومن جهة اخرى فإن الاختيار يشيح ، بفعل الحاجز الذي يُنصب في إبان ذلك في وجه حب المحارم ، عن هؤلاء الاشخاص ليقع على غيرهم ممن يشبهونهم. ولنضف الى ذلك ، ختاماً ، أن سيرورات النمو الجسمي والنفسي في مرحلة البلوغ الانتقالية تتم في بادىء الأمر بغير ما رابط بينها ، الى أن يؤدي اندفاع حبي شديد ، ذو طابع نفسي ، الى تعصيب المناطق التناسلية ، فتتحقق اخيراً الوحدة المميزة للحياة الحبية السوية .

العوامل التي قد تؤدي الى اضطرابات في النمو - ان كل مرحلة من مراحل هذا التطور الطويل الأمد يمكن أن تغدو نقطة تثبيت ، وكل وصلة في هذا التركيب المتشابك قد تتيح فرصة لتفكك في الغريزة الجنسية ، كما برهنت لنا على ذلك أمثلة عدة . ويبقى علينا ان نعدد مختلف العوامل الداخلية او الخارجية القادرة على الإخلال بالنمو وأن نحدد ما الجزء من الأوالية الذي يقع عليه فعلها . ولكن لنلحظ ان العوامل في تعداد كهذا لن

تكون جميعها متعادلة في القيمة . وانه سيكون من الشاق تقدير كل منها بحق قدره .

الجبلة والوراثة - ينبغي ان نذكر هنا في المقام الأول ، **الفوارق الخِلقية في الجبلات الجنسية** ، وهي في أرجح الظن ذات أهمية فاصلة ، وان لم يكن من الممكن تبيُّنها إلا باستنتاجها من تظاهراتها اللاحقة ، وهذا دون أن يكون في مقدورنا الوصول الى يقين مطلق . ونحن نعتقد ان قوام هذه الفروق رجحان مصدر بعينه من مصادر الاثارة الجنسية ، ونفترض انها لا بد أن تظهر في المحصلة النهائية للنشاط الجنسي ، حتى ولو بقي هذا النشاط ضمن حدود السواء . هذا لا يعني بطبيعة الحال أنه لا يمكن تصور تنوعات في الاستعداد الاصلي قمينة بأن تؤدي بصورة محتمة ، وبلا تدخل عوامل اخرى ، الى حياة جنسية غير سوية . ومن الممكن أن نشير الى هذه التنوعات باسم « انحطاطات » وأن نرى فيها أعراضاً لتلف متوارث . وسأسوق بهذا الصدد ملحوظة مثيرة للاهتمام . فقد تحققت ، في اكثر من نصف الحالات المرضية التي عالجتها من هستيريا خطيرة وعصاب وسواسي ، الخ ، من أن الآباء كانوا يعانون من إصابة بالزهري جرى اكتشافها وعلاجها قبل الزواج ، سواء أأفضت هذه الاصابة الى سهام أو شلل عام ، أم أمكن الاستدلال عليها من تاريخ الحالة . وإني لألح إلحاحاً خاصاً على واقع ان الاطفال العصابيين لا يحملون أية علامة جسمية من علامات الزهري ، مما يوجب ان نعد الشذوذ في خِلقتهم الجنسية آخر صدى من أصداء وراثة زهرية . ودون أن أزعم أن التحدر من أبوين زهريين هو الشرط الاتيولوجي القياسي واللازم لجبلّة عصابية ، أعتقد أن التوافقات الملحوظة ليست ابنة المصادفة ، وأنه لا بد ان نحسب لها حساباً .

أما فيما يتصل بحالات الانحراف الموجب فإن معرفتنا بشروطها الوراثية أوهى ، لأنه يعز أصلاً على طرائقنا في الاستقصاء ان تطالها . ومع ذلك ، لدينا اسباب وجيهة للافتراض بأن بين الاعصبة والحالات الانحرافية تشابهاً . وبالفعل ، كثيراً ما نلتقي في الأسرة الواحدة حالات انحرافية وأعصبة نفسية متوزعة بين كلا الجنسين على النحو التالي :

فالذكور ـ أو واحد منهم على الاقل ـ مصابون بانحراف موجب ، بينما تعاني الاناث ، طبقاً لميل جنسهن الى الكبت ، من انحراف سلبي ، اي الهستيريا . وهذا دليل اضافي على الروابط الجوهرية التي تحققنا من وجودها في هذين النوعين من الاضطرابات المرضية .

الإخراج اللاحق ـ على أنه من الخطأ مع ذلك ان نتصور أن عمل مختلف مركبات الجبلة الجنسية سيحدد وحده الشكل الذي ستتخذه الجنسية . فهذا الشكل يبقى مشروطاً بالخارج ، وثمة احتمالات لاحقة تظهر الى حيز الوجود تبعاً للمصير الذي تؤول اليه التيارات الجنسية الصادرة عن مصادر متباينة . وعليه فإن **الإخراج اللاحق** هو العنصر الحاسم ؛ ومن الممكن لجبلة واحدة ان تفضي الى ثلاثة أشكال محتملة من التطور :

١ ـ ان حافظت جميع الاستعدادات على علاقة واحدة فيمابينها(وقد حددناها بأنها غير سوية)، وان قويت مع النضج ، تكن النتيجة الممكنة الوحيدة حياة جنسية منحرفة . ولم تخضع مظاهر الشذوذ الجبلّية هذه لتحليل معمق بعد ؛ ومع ذلك نعرف حالات يمكن تفسيرها بسهولة بهذه الفرضية وحدها . وهكذا يرتئي بعض المؤلفين ان طائفة بكاملها من الانحرافات التثبيتية تفترض بالضرورة وجود ضعف خِلقي في الغريزة الجنسية . ولا يبدو لي هذا الرأي قابلاً للأخذ به في صورته الحالية ؛ وانما يكون خصباً ان طبق مصطلح « الضعف الخلقي » على عامل جبلي من عوامل الغريزة الجنسية ، أعني المنطقة التناسلية التي ستقع على عاتقها فيما بعد وظيفة التنسيق بين هذه التظاهرات الجنسية التي تكون لا تزال متفرقة والتأليف بينها لهدف الإنسال . وبالفعل ، إن الاندماج الذي كان يفترض به أن يتم وقت البلوغ لا يقيض له النجاح ؛ واقوى المركبات الجنسية الاخرى هو الذي يفرض في هذه الحال سيطرته في صورة انحراف(٢) .

(٢) [كثيراً ما نلاحظ ، في مستهل مرحلة البلوغ ، وجود تيار من الجنسية السوية ، لكنه اضعف من ان يقاوم اولى العقبات التي تقابله من الخارج ، فيتبدد ويحل محله نكوص يفضي بدوره الى انحراف] (اضيف سنة ١٩١٥) .

الكبت ـ ٢ ـ تكون النتيجة التي يتم التوصل اليها مختلفة كل الاختلاف اذا تعرضت بعض المركبات الجنسية ، التي نتكهن بأنها مفرطة في القوة ، لعملية كبت في اثناء النمو ؛ والكبت كما قلنا لا يعني البتة الزوال والاضمحلال . فالتنبيهات تحدث الآن كما كانت تحدث من قبل ، لكنها تتحول عن هدفها بفعل كف نفسي ، وتسلك طرقاً اخرى الى أن تفصح عن نفسها في صورة أعراض مرضية . والحق أنه قد تنجم عن ذلك حياة جنسية سوية ، وان مخففة في غالب الاحيان ، مع تكملة لها في صورة عصاب نفسي. وقد أصبحت هذه الحالات مألوفة لدينا بنتيجة الفحوص التحليلية النفسية التي أجريناها على معصوبين . فالحياة الجنسية تبدأ عند هؤلاء كما تبدأ عند المنحرفين ، إذ ان شطراً واسعاً من طفولتهم قد استغرقه نشاط جنسي انحرافي ، وهو نشاط قد يمتد احياناً الى ما بعد زمن البلوغ ؛ وبعد ذلك ، ولأسباب داخلية ، يحدث عقب الكبت تحول ، ويكون ذلك بوجه عام قبل البلوغ ، لكنه قد يكون في بعض الاحيان ايضاً بعده؛ ومنذئذ ، ومن غير ان تختفي الميول القديمة ، يحل العصاب محل الانحراف . وهو ما يذكرنا بالمثل القائل : بغي في الصبا ، ومترهبة في الشيخوخة . غير أن أجل الصبا لم يكن في الحالة التي نحن بصددها مديداً!وهذا الحلول للعصاب محل الانحراف في حياة الفرد ، وتوزع الحالات الانحرافية والعصابية بين أفراد الأسرة الواحدة ، كل ذلك ينبغي إرجاعه الى واقع ان العصاب هو الصورة السالبة للانحراف .

التصعيد ـ ٣ ـ قد يكون هناك مآل ثالث لحالة عدم السواء في الجبلة ، يتمثل في سيرورة **التصعيد** . فالتنبيهات المفرطة في قوتها والنابعة من مصادر مختلفة للجنسية تجد لها متصرَّفاً واستخداماً في مجالات اخرى ، بحيث تتمخض الاستعدادات الخطرة بحد ذاتها في البداية عن زيادة لا يستهان بها في القدرات والانشطة النفسية . وذلكم هو أحد مصادر الانتاج الفني ، وتحليل طباع الافراد الموهوبين كفنانين قمين بأن يكشف عن تنوع في العلاقات بين الابداع والانحراف والعصاب ، تبعاً لكون التصعيد كاملاً أو ناقصاً . ويبدو ان القمع بطريق **التشكيل الارتجاعي** ـ الذي رأينا ان آثاره الأولى تبدأ بالظهور في مرحلة الكمون

وقد يستمر مدى الحياة ان كانت الظروف مؤاتية - ينبغي أن يُعد ضرباً من التصعيد . وإن ما نسميه بـ « الطبع » مبني الى حد كبير من مواد التنبيهات الجنسية ، ويتكون من غرائز مثبتة منذ الطفولة ، ومن أبنية تشيد بطريق التصعيد ، ومن انشاءات اخرى مرصودة لقمع النوازع الانحرافية التي اتضح انها غير قابلة للاستعمال[٣] . ومن ثم يباح لنا القول إن الاستعداد الجنسي لدى الطفل يخلق ، بطريق التشكيل الارتجاعي ، عدداً كبيراً من فضائلنا[٤] .

الخبرات العارضة - بالقياس الى السيرورات التي عددناها : الاندفاعات الجنسية وضروب الكبت والتصعيد (ونحن على جهل مطبق بالاوالية الداخلية للسيرورتين الاخيرتين) ، تبدو جميع المؤثرات الاخرى ثانوية الاهمية . فإن اعتبرنا الكبت والتصعيد وجهاً من الاستعدادات الجبلية للفرد ومظهراً حياً لها ، جاز لنا القول ان الصورة النهائية التي تؤول اليها الحياة الجنسية هي في المقام الاول حصيلة جبلة خلقية . لكن لا يسعنا ان نماري في أنه يتعين علينا ، حتى وان سلمنا بتعاون مختلف العوامل ، أن نفسح مكاناً لبعض المؤثرات المرتبطة بخبرات عارضة سواء أعرضت للمرء في طفولته أم في زمن لاحق . [وليس من السهل تقدير اهمية كل من العوامل الجبلّية والعوامل العارضة . ودائماً ما نميل من الناحية النظرية الى المبالغة في شأن الأولى ، بينما ترجح كفة الثانية في اثناء الممارسة العلاجية . ومهما يكن من أمر ، فليس يجوز لنا أن ننسى أن ما بين

(٣) [لقد امكن التثبت من أن بعض السمات الطبعية ليست منقطعة الصلة هي ذاتها بمركّبات شهوية محددة . ومن ذلك ان العناد والتقتير وحب النظام قابلة للارجاع الى نشاط المنطقة الشهوية الشرجية . اما الاستعداد الإحليلي - الشهوي القوي فيتولد عنه الطموح] (اضيف سنة ١٩٢٠) .

(٤) يصف لنا اميل زولا ، بما له من معرفة ثاقبة بالطبيعة الانسانية ، في روايته **فرح الحياة** فتاة تضحي عن طيب خاطر وبتجرد مطلق عن الغرض بكل ما تملكه وبكل ما كان يمكن ان تطالب به ، وبثروتها واعز مطامحها في سبيل من تحب ، دون ان تفكر بالثواب . هذه الفتاة كانت تستحوذ عليها في طفولتها حاجة لا يروى لها غليل الى الحب ، حتى انها ارتكبت فعلاً من افعال القسوة حينما وجدت نفسها مرة وقد اوثرت عليها فتاة اخرى .

هاتين السلسلتين من العوامل تعاوناً لا تنافيا . فالعامل الجبلي بحاجة الى خبرات معاشة كيما يؤدي دوره ؛ والعامل العارض لا يستطيع ان يفعل فعله إلا بالارتكاز الى جبلة معينة . وبوسعنا ، في اكثر الحالات ، ان نتخيل « سلسلة متتامة » تعوض فيها الشدة المتزايدة لأحد العاملين عن الشدة المتناقصة للعامل الآخر ؛ على أنه لا يجوز بحال اتخاذ ذلك ذريعة لنفي وجود حالات قصوى عند طرفي السلسلة .

يعطي التحليل النفسي خبرات الطفولة الاولى مكانة الصدارة في مجال العوامل العارضة . فالسلسلة الاتيولوجية تنقسم الى سلسلتين : أولاهما هي السلسلة **الاستعدادية** ، والثانية **السلسلة النهائية** . وفي أولى السلسلتين يتضافر تأثير كل من الجبلة والخبرات المعاشة في الطفولة ، مثلما يتضافر في ثانيتهما تأثير الاستعدادات والخبرات الرضية اللاحقة . ويكون من نتيجة جميع الظروف غير المؤاتية للنمو الجنسي حدوث **نكوص** ، أي رجوع الى طور سابق من النمو] (اضيف سنة ١٩١٥) .

ولنواصل الآن تعداد العوامل التي لها أثرها في النمو الجنسي .

التبكير - لنذكر بين جملة العوامل الهامة **التبكير** الجنسي التلقائي الذي نلتقيه دواماً في اتيولوجيا الاعصبة ، رغم انه قد لا يكون كافياً بحد ذاته (مثله مثل أي عامل آخر) لتشغيل السيرورة المرضية . ويتجلى التبكير في ما يطرأ على مرحلة الكمون من انقطاع أو اختصار او الغاء ، ويتسبب في حدوث اضطرابات باستثارته تظاهرات جنسية منطبعة حتماً بطابع انحرافي - نتيجة لضعف تمخض ضروب الكف الجنسي من جهة أولى ، ولضعف نمو الجهاز التناسلي من الجهة الثانية . وهذه الاستعدادات للانحراف قد تبقى كما هي ، أو قد تصير ، بعد الكبت ، هي القوى الغريزية المهيئة للأعصبة .

وعلى أية حال،فإن التبكير الجنسي يزيد من صعوبة سيطرة الهيئات النفسية العليا على الغريزة الجنسية على نحو ما هو مطلوب في طور لاحق من العمر ، كما انه يزيد من قوة الطابع القهري للتظاهرات النفسية للغريزة الجنسية . وكثيراً ما يقترن التبكير الجنسي بالتبكير العقلي ، وبهذه الصفة نلتقيه في طفولة أنبغ الناس . على أنه لا يبدو في هذه الحالة مسبِّباً

للمرض بنفس ما يكون عليه من فاعلية في حال كونه منفرداً .

[**عامل الزمن** – يتطلب عامل **الزمن** ، مثله مثل عامل التبكير ، انتباهاً خاصاً . ويبدو أن التطور السلالي قد حدد التسلسل الذي تدخل به مختلف الغرائز الى حيز النشاط ، كما حدد مدة تظاهرها قبل أن تختفي تحت تأثير غريزة جديدة ، أو بنتيجة كبت متميز . ومع ذلك يبدو ان هناك تنوعاً في تعاقب هذه الغرائز كما في مدتها ، وهو تنوع قد يكون حاسم الأثر من حيث المحصلة النهائية . فلا يستوي ان يظهر تيار بعينه قبل التيار المعاكس له أو بعده ، إذ ليس في المستطاع إلغاء تأثير الكبت . وتنوع التسلسل في ظهور مركّبات الغريزة الجنسية يؤدي الى تغير النتيجة . ومن جهة اخرى ، فإن بعض الغرائز التي تظهر بقوة قد تختفي بسرعة مدهشة . ومن هذا القبيل التعلق الجنسي الغيري الذي يبديه في أول الأمر من سيصير لاحقاً من الجنسيين المثليين السافرين . وميول الطفل ، مهما تلبّس ظهورها طابعاً عنيفاً ، لا تبرر الخوف من ان تسيطر سيطرة دائمة على طبع الراشد . فمن الممكن ايضاً ان نتوقع زوالها لتفسح مكاناً للميل المعاكس لها (فالمستبدون لا يدوم حكمهم طويلاً)] (اضيف سنة ١٩١٥) . أما الاسباب التي تتحكم بالاختلالات ذات الطابع الزمني في سيرورات النمو فتغيب تماماً عن إدراكنا . وكل ما هنالك اننا نستشف عن بعد طائفة من المشكلات البيولوجية ، وربما التاريخية ايضاً ، دون ان يكون في مستطاعنا بعد الاقتراب منها الى مسافة تجعلها في متناولنا .

الميل الى التكرار – مما يزيد من أهمية جميع التظاهرات الجنسية المبكرة وجود عامل نفسي نجهل أصله ولا نستطيع أن نتكلم عنه كمفهوم إلا بصفة مؤقتة . والمقصود به **الميل الى التكرار** أو **قابلية تثبيت** انطباعات الحياة الجنسية ، وهي صفة نلتقيها لدى المرشحين لأن يصيروا عصابيين او لدى المنحرفين ، ومن الواجب حساب حسابها في الجدول السريري للمرض . وبالفعل ان التظاهرات الجنسية المبكرة عينها لا تحدث لدى اشخاص آخرين مثل هذا التأثير العميق بحيث ترغمهم على تكراره قهرياً وتعيّن على هذا النحو اتجاهاً لغريزتهم الجنسية على مدى الحياة . ولعل احد الاسباب التي تفسر لنا طابع هذا الميل الى التكرار يتمثل في واقعة

سيكولوجية لا يمكن بدونها تعليل الاعصبة ، ونقصد بها غلبة الآثار الذاكرية على الانطباعات الحديثة العهد . ومن المؤكد ان هذه الواقعة السيكولوجية تتوقف على درجة النمو العقلي ، وتزداد اهمية بازدياد ثقافة الفرد . ولقد قيل عن المتوحشين انهم « أبناء اللحظة الاشقياء[٥] » . ونظراً الى العلاقة الضدية بين الحضارة والتطور الحر للجنسية – ومن الممكن أن نتتبع آثار هذه العلاقة على المدى البعيد في الشكل الذي ستتخذه حياتنا بالذات – فإن من الأهمية بمكان ان نعرف كيف تطورت الحياة الجنسية للطفل في ظل الحضارات المتقدمة ، على حين ان هذا التطور عينه ليس بذي شأن يذكر في ظل الحضارات الدنيا .

التثبيت – ان التأثير الموائم الذي تمارسه العوامل النفسية التي عددناها تعضده الاثارات العارضة في زمن الجنسية الطفلية . فهذه الاثارات (وفي المقام الأول الاغواء على يد اطفال آخرين أو من قبل الراشدين) تخلق حالات جنسية قابلة لأن تتثبت ولأن تتلبس بالتالي طابعاً مرضياً ، بمعونة العوامل النفسية التي تقدمت الاشارة اليها . وان جزءاً لا يستهان به من الحيدانات الجنسية التي يمكن أن تُشاهد لدى الراشد المعصوب أو المنحرف مرده الى انطباعات وخبرات تعرضوا لها في اثناء الطفولة التي تُعدّ متجردة من الصفة الجنسية . وعلى هذا ينبغي ان ندرج في عداد العلل والاسباب الجبلة والتبكير والميل المتعاظم الى التكرار ، واخيراً الاثارات العارضة للغريزة الجنسية بفعل مؤثرات خارجية .

يبقى أنه يتعين علينا ، في مختتم كتابنا ، ان نقر آسفين بأن أبحاثنا بصدد اضطرابات الحياة الجنسية تكشف عن نقص معارفنا بالسيرورات البيولوجية التي هي لها بمثابة الاساس والجوهر ، ومن ثم لا يتأتى لنا ان نصوغ بالاعتماد على معلوماتنا المتفرقة نظرية قادرة على تقديم تفسير كافٍ للاحوال السوية والمرضية للجنسية .

(٥) بوسعنا الافتراض ان قوة ميل بعض الانطباعات الى تثبيت نفسها ترجع الى شدة النشاط الجنسي البدني في طور سابق من الحياة .

الفهرس

المبحث الثالث